لينا هويان الحسن

ألماس ونساء

رواية

دار الآداب

ألماس ونساء

لينا هَوْيَان الحسن

ألماس ونساء

رواية

دار الآداب ـ بيروت

ألماس ونساء

لينا هَوْيَان الحسن / روائيّة سوريّة

الطبعة الأولى عام 2014
ISBN 978-9953-89-460-7
حقوق الطبع محفوظة

All rights reserved. No part of this book may be reproduced, stored in a retrieval system, or transmitted in any form or by any means without prior permission in writing of the publisher.

جميع الحقوق محفوظة. لا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب أو أيّ جزء منه أو تخزينه في نطاق استعادة المعلومات أو نقله بأيّ شكل من الأشكال، دون إذن خطّي مسبق من الناشر

دار الآداب للنشر والتوزيع
ساقية الجنزير ـ بناية بيهم
ص.ب. 4123 ـ 11
بيروت ـ لبنان
هاتف: 861633 (01) ـ 861632 (03)
فاكس: 009611861633
e-mail: rana@daraladab.com
info@daraladab.com

/Dar.Al.Adaab @DarAlAdab daraladab.com

إهداء

لأنّ بلزاك قال يومًا «ليس الحبّ مشاعر فقط، إنّه فنّ أيضًا».. إلى «أ»

(. السنوات بالنسبة لدمشق ليست سوى لحظات، دمشق لا تقيس الوقت بالأيّام والشهور والسنين، وإنّما بالإمبراطوريّات، التي شهدت قيامها وازدهارها، ومن ثم، انحطاطها وفناءها دمشق شكل من أشكال الخلود. لقد قلّبت دمشق النظر في رفات أهالي ألف إمبراطوريّة، وستشهد أيضا قبور ألف إمبراطوريّة أخرى قبل أن تفنى..)

مارك توين «الأبرياء خارج البلاد» ١٨٦٩

جميع شخصيّات الرواية من صُنع الخيال ـ باستثناء الشخصيّات العامّة ـ وأيّ تشابه مع أرض الواقع سيكون محض مصادفة.

لا بدّ من كلمة «شكر» كبيرة لموظّفي مكتبة الأسد بدمشق، الذين تحمّلوا معي، على مدى عام كامل، مشاقّ تشغيل «الميكروفيلم» للاطّلاع على عوالم المهجر السوري من خلال صحف ومجلّات صادرة في ساو پاولو وبيونس أيريس، ووثائق قيّمة أتاحت لي رسم عوالم السوريين واللبنانيين في البرازيل والأرجنتين. وشكر خاصّ للصديقة «كوكب. ش» لإطلاعي على بعض أجواء «الكونتات» العرب في باريس مطلع القرن العشرين.

في يوم مر كمرور ريح لا بدّ أن تمرّ، ارتفع الحظّ وأصبح غيمة، وأمطر

التقى كارلوس كرم ببرلنت، فحرّر الأحلام والأصوات، والذاكرة التي ستمنحه مأوى.

ولأنّ الانتماء مفزع، سيكتب كارلوس أخيرًا، في تلك اللحظات التي تجعل الأشياء لنا إلى الأبد. ويقسم «أن أكتب وأمحو كلّ شيء التاريخ، الروزنامات، الهزائم، الخيانات، الأوجاع، الفخاخ، الأسماء، الوجوه.

سيكتب حتى لا نكرّر التاريخ، بدلاً من أن نصنعه.

سيترك كلّ شخوص الماضي تفلت من «براويزها» لكي تذهب بعيدًا أنّى شاءت وبكامل كبريائها

بماذا نمسك؟ إلّا ما يهرب منّا

الجزء الأوّل

الباخرة «أوره نوف»

مبحرة من بيروت إلى مرسيليا ١٩١٢

تلفّتت ألماظ إلى كلّ الجهات متفقّدة الطرق. كأنّها لتوّها عرفت أنّ الطرق في البحار مجرّد فرضيّات، متاحٌ تغييرها وانزلاقها

فخّ مذهل، يمكن للبحار افتعاله في أيّة لحظة: سطح هادئ لعمق متوحّش مرتعش ومضطرب كقلب عاشق محروم.

أعجوبة، بدت تلك الماسة الزرقاء الشاحبة التي زيّنت عنق «ألماظ» الأسمر

قليلون هم أولئك الذين كانوا يعرفون أنّ لون بشرة الخانم الدمشقيّة الصغيرة قد ورثته من جدّتها الهندوسيّة.

رغم أنّ الكونت لم يكن قد رأى فيها امرأة جميلة، لكنّها بدت كائنًا غريبًا، خلال سلام مسائي حلّقت فيه عيناها مأخوذة

بصخرة شاهقة كانت تحاذي الباخرة الروسيّة «أورهْ نوف»، اتّسعت عيناها السوداوان فيما الكونت يتفرّس عمق عينيّ عروسه السمراء النحيلة ذات الخمسة عشر ربيعًا تحمل لقب «خانم»، وبروفيلاً ذكّره بنساء تلك اللوحات الجداريّة التي رآها في أحد معابد البطالمة في مصر، مضاءة بذلك التألّق البارد المسرف للألماس.

أدهشتْه كيف استطاعت التحوّل إلى شيء جميل ولافت للنظر حين اختارت الزيّ المحيّر ثوب ديكولتيه من الحرير الأبيض الشفّاف المبطّن بالموسلين الألماسي اللامع، مع تسريحة بسيطة وزّعت فيها شعرها الأسود بتعادل بين قمّة رأسها ومؤخّرة عنقها وتلك الريشة الطاووسيّة الخالصة البياض المصنوعة يدويًا من الحرير

يتذكّر أنّه لم يعشق النساء السمراوات قطّ. يفضّلهن إمّا شقراوات أو سوداوات.

كان يخشى من غموض السمراوات، والتباس ملامحهن.

تبتسم قليلاً، وتبدو رقّة ثغرها أكثر وهي تسمع حكاية الجزيرة الصخريّة الصغيرة التي كانت تمرّ قربها الباخرة.

وقتها لم تكن قد سمعت بالكونت دي مونت كريستو، ولم تقرأ رواية ألكسندر دوماس تلك. وضعت في ذهنها أنّها ستقرأ الرواية في أقرب فرصة، كان الوقت بعد الظهر والبحر هائجًا وجميلاً الباخرة الضخمة تشقّ أحشاءه مخلّفة الموج وراءها مثل جمال مذعور. يترامى الغيم الكثيف كنسيان مهشّم، والآفاق

منهوبة بالفراغ، يخالطها الأفق ويحيلها شحوبًا خالصًا، وتلتبس الجهات.

بسبب خبرته الطويلة مع النساء، استشفّ بعض أسرار الخانم، بينه وبين نفسه يضحكه لقب خانم ولا يراه ملائمًا لحجم الفتاة الضئيل.

كان دائمًا يحذر من النساء المولعات بالصخور. ظلّت عيناي الخانم معلّقتين بصخرة كونت دي مونت كريستو، بينما الباخرة تبتعد وتخلّف الصخرة بعيدًا في الأفق الذي يعكف عليه الغيم، ويبدّده المطر على عجل

لا يمكن ردّهُ،

ذاك الخبث المتواري وراء عينيها، فكّر الكونت وقد حيّرته قدرتها على الجمع بين قطّة وحمامتين من النوع الزاجل، وذلك السكوت الخالص الذي تمارسه فتاة شابّة بين الكلمات.

يجفل قلبه وقتما يتذكّر فمها كيف كان يرتجف مثل عصفور وحيد ومروَّع، عقب قبلة يتيمة، كانت حصّته منها، قبل أن يتراجع صافقًا الباب خلفه.

كان موقنًا أنّه تسرّع في عقد قرانه على شابّة يافعة جدًّا، ومنذ ليلة الدُخلة المفترضة لم يلج غرفة عروسه.

عاد إلى عادته المتأصّلة: استثمار دفء مؤخّرتيْ خادمتيه الحبشيّتين.

كانت تبدو أكثر ألفة ولطفًا، عندما كانت الباخرة تمرّ

بمحاذاة جزيرة استرومبولي. قضت النهار بطوله وهي على ظهر السفينة تراقب الدخان المتصاعد من جبال الجزيرة البركانيّة. لكن مساء، عندما مرّت الباخرة على ميناء نابولي، فجأة لم تعد الخانم الشاميّة الصغيرة مشغولة بأدخنة بركان فيزوف. إنّما امتقع وجهها وهي تراقب الكونت يغازل واحدة من الفتيات الإيطاليّات اللواتي اقتربن على ظهور مراكب صغيرة. كانت الفتاة تمتلك صدرًا ناهدًا وترفع شعرها فوق رأسها، تنطلق من حنجرتها أغان إيطاليّة قرويّة وتحمل بيدها مظلّة مقلوبة، أي اليد إلى الأعلى، لتتلقّى بها النقود لقاء غنائها رمى لها المسافرون عملات مختلفة، والكونت كان أكثرهم كرمًا

والساعات القليلة التي قضتها الباخرة على رصيف الميناء لتحميل البضاعة، كانت كافية للكونت ليغيب عن الخانم ساعتين، ثم يعود وعليه علائم التعرّق وبريق حادّ في عينيه.

منذ بدأت رحلتهما، لم يعثر الكونت على لغة مشتركة مع عروسه، حتى انتبه مصادفة إلى ولعها بالرواة والحكّائين، فكلّ أبناء دمشق يتربّون في كَنَف الحكايات. واظب على لفت انتباهها كلّما أراد ذلك، عبر استذكار حادثة وقعت معه أو شيئًا غريبًا رآه ذات يوم في واحدة من أسفاره.

لسنوات عدّة، تساءل عن سر قبوله بالقيام بتلك الرحلة الغريبة والوحشيّة، التي كلّفه بها السلطان عبد الحميد قبل سنوات خلت.

يومها وجد نفسه في بلاط إمبراطور الحبشة «النجاشي منليك الثاني»، ليكون مرافقًا لواحد من كبار ضبّاط السلطان لغايات سياسيّة. وقتها قام بها الكونت من باب الفضول والمغامرة.

فَطِنَ إلى جمال تلك الرحلة وتنوّعها فقط، عندما راح يقضي فترة المساء في قاعة الطعام، وهو يتناول وجبة العشاء مع خانمه التي تشبه الدمية، وهي ترتدي أحدث الثياب الأوروبيّة.

ألماظ بدت أكثر نحولاً ممّا هي عليه. مع عرض التنّورة المستقيمة في الأسفل، كانت مثل غصن مكلّل بزهرة كبيرة، بسبب حجم قبّعة كبيرة مزيّنة بتوليفة ورود وريش وخرز لامع وحجر برّاق.

الكونت حافظ على ارتداء بنطال الـ «غولف» مع جوارب صوفيّة، وقبّعة لبّاديّة يعتمرها عادة الشباب لتخفيف فارق العمر الواضح بينهما

مشيًا على عادة الأثرياء المتبطّلين، زيّن أكمامه بأزرار من الذهب، وأحاط معصمه بساعة سانتوس ـ كان قد أطلقها «كارتييه» في باريس كهديّة للطيّار البرازيلي ألبرتو سانتوس في عام ١٩٠٤ بمناسبة عبوره للأطلسي. فكانت تلك الساعة أوّل ساعة معصم رجّاليّة تُصمّم بحزام من الجلد.

لكنّ الساعة اختفت عقب إحدى السهرات. الكونت ظنّ أنّه أسقطها سهوًا في مكان ما، ولم يخطر في باله أنّها اختُلست منه، كما ستكتشف ألماظ بعد سنوات.

قائمة الأشياء المفضّلة لدى ألماظ خانم، حرّكت ريبة غير مفهومة في قلب الكونت. صخور، وحمائم، وقطط، «ربّنا يستر» يقول لنفسه بصمت، ويتابع قصّ حكايا عن رحلته إلى الحبشة، وأماكن أخرى غريبة وبعيدة زارها

ما أسهل قصّ الحكايا على رجل عاش حياة الكونت! راوده شعور غريب ومريح ومطمئن.

كأنّه عاش كلّ تلك الحياة الصاخبة ليأتي يوم ويروي فيه القصص والحكايا لفتاة صغيرة!

تزعجه فكرة أنّ الخانم النحيلة كان يمكن أن تكون بعمر حفيدته.

ذلك لو أنّه تزوّج في العمر اللازم وأنجب ذرِّيّة.

لن يفكّر في هذه اللحظة تحديدًا، وهو يكاد يبلغ الخمسين، بما يمكن أن يتغيّر في حياته لو أنّه تزوّج من المرأة التي عشقها دائمًا

لا نحظى بسهولة بمن نقع بغرامهم!

هكذا فكّر الكونت، عندما بلغه نبأ زواج زوفينار للمرّة الثالثة من أحد أعزّ أصدقائه. ليست مشكلة، ذهب العمر كلّه. في لحظة فذّة، لا تهادن، لا تقبل الحلول الوسط، في لحظة سوداء كالنقمة، بيضاء كالنقاوة. تقدّم لخطبة ألماظ، ابنة تاجر سجّاد دمشقيّ ثريّ. لم يرها إلّا مرّة واحدة قبل أن يقف في الكنيسة متأبّطًا ذراعها ويقسم على وعد الارتباط الأبدي.

نوافذ كثيرة نفتحها، وأخيرًا نعثر على الوجه الرسمي للحياة.

* * *

الباخرة «أوره نوف»، تقتحم صباح بحر هادئ، و«الخانم» السمراء، الصغيرة، تشرب شايها الساخن المغلي بالقرفة والقرنفل.

من بين رموش عينيها الكثيفين ترمق خادمتيها لور وكارو.

تتمعّن أكثر بمؤخّرة الخادمة «لور»، وترمي صوب زوجها نظرة ذكيّة عارفة.

تُربكه، وبدوره يطلب من «لور» مزيدًا من الشاي، تناوله ما يطلب بعد أن تحيط كتفيْ سيّدتها برداء من الصوف الأبيض. بينما الخادمة الأخرى «كارو» تزيح الستائر

تعود الخانم إلى مناورة أزرق البحر الصافي، وتلبث مستكينة تنقِّل بصرها بين لور وكارو والكونت والبحر، وقطّة تتظاهر بالنعاس وتتوسّد ذراع سيّدتها السمراء وتطلق «مياو. » ناعسة بين لحظة وأخرى.

ولا تنسى ألماظ أن تتفقّد زوج الحمائم. تنهض فجأة شبه عارية متملّصة من ثوب منامتها الحريريّ التوتيّ اللون، والمطرّز بخيوط ذهبيّة على شكل عيون متداخلة. وتخلع رداءها الصوفي مكتفية بلباس داخلي من القطن الأبيض زاد من سمرة جسدها ومن بروز عظام ظهرها باغتته بتلك الحركة، فيما اتّجهت صوب حمامتيها لتطعمهما حبوب الكزبرة.

ترك غليونه جانبًا، وتناول كسرة من البسكويت أكلها على مهل معلّقًا عينيه على جسد ألماظ الناحل الصبياني، وهي ترتدي ثيابها بمساعدة الخادمة لور لم تنظر إليه مطلقًا، تصرّفت ببراءة طفلة اعتادت أن ترتدي ثيابها أمام أبيها، فقط ابتسامة خفيفة رسمتها على محيّاها، وهي تمدّ رجليها الواحدة تلو الأخرى لخادمتها كارو، لتساعدها بلبس حذائها المخملي الأسود.

عند بوّابة قاعة الطعام لركّاب الدرجة الفاخرة، تقابلا مع البكباشي محمود، الذي يؤكّد لكلّ من على ظهر الباخرة أنّه هَجَر الوظيفة الحكوميّة ويعمل بالتجارة.

الكونت كان صديقًا قديمًا لوالده، رفض أن يصدّق نفسه في أسباب تجنّبه للقائه على ظهر الباخرة: كان يغار من شبابه وشاربيه السوداوين المنمّقين ومشيته العسكريّة.

يختلط دخان غليون الكونت بدخان تبغ ثلّة من رجالات دمشق، الذين وجدوا أنفسهم في المنفى، لأنّهم رفعوا بيرق المعارضة في وجه الحكم العثماني وتحديدًا الليبراليين جمعوا أنفسهم في باريس، وقد خرجوا لتوّهم من هزيمة طازجة في الانتخابات البرلمانيّة للعام ١٩١٢، كانوا قد نظّموها في الولايات السوريّة.

يحرفون دقّة الحديث تمامًا حينما ينضمّ إليهم البكباشي محمود، الذي كان غاية بالتهذيب، لم يرفع عينيه صوب الخانم أبدًا! وتتابع أحاديث السياسة إلى أن يلمح الكونت زوجته وهي تجتزئ قطعة لحم من صحنها وتضعها في صحن آخر، وتغافل

الخدم وتدس الصحن تحت الطاولة لقطّتها نيغرو التي بدت أنّها اعتادت حيلة سيّدتها

الكونت يحتجّ ويتأفّف من عادتها تلك. البكباشي يلطّف الجوّ، ويروي أنّ البحّارة لا يخشون غدرات البحار إذا ما وجدت قطّة سوداء على ظهر السفينة. تمنحه الخانم ابتسامة متواطئة.

الكونت علّمته الحياة أن يخشى من ابتسامات النساء أكثر من تكشيرات الوحوش.

مرّة أخرى، ابتسمت ألماظ.

ابتسمت تلك الابتسامة المحيّرة.

وفكّر الكونت فظيعات هنّ النساء، كيف للمرأة أن تخترع ذلك الكمّ الهائل من أنواع الابتسامات وأشكالها!

مر عليه وقت خُيّل إليه فيه أنّه تسنى له رؤية كلّ ما يمكن أن يبديه ثغر امرأة ابتسامة، ضحكًا، تقبيلاً، لعقًا، لحسًا، مصًّا، تلمّظًا، تأوّهًا

لكن، ألماظ خانم تذهله بطراز جديد من الابتسامات، ابتسامة جديدة لم ير مثلها

أصلاً لم يكن متيقّنًا من أنّ ذلك التعبير الذي ترسمه شفتا الخانم الصغيرة إذا ما كان هو ابتسامة!!

لكنّه، لم ينس أن يلقي على مسامعها بعض الثرثرات التي كان يتناقلها ركّاب الدرجة الفاخرة، على ظهر الباخرة، حول

حقيقة أنّ البكباشي كان يدفع إكراميّات غاية في السخاء لخدم الباخرة، ليحجزوا له مقعدًا بجوار كبار الركّاب من المسافرين الأثرياء.

في ميناء «بيره» اليوناني، ألقت الباخرة مراسيها، وضجّ البحر بالقوارب التي تحمل تراجمة السيّاح وسماسرة الفنادق، وأخذوا يحومون حول الركّاب، يتكلّمون لغات متعدّدة. الكونت والخانم نزلا البرّ

قاما بزيارة إلى أثينا على مركبة مكشوفة يسمّيها اليونانيّون «لاندو»

تناولا غداءً مكوّنًا من لحم الخيل، وأكثرت ألماظ ـ الخانم من تلك الابتسامة التي أصبح ينتظرها ويحبّها، وراح يصطاد كلّ ما يمكن أن يجعلها تبتسم: ترجم لها العبارة المكتوبة على باب المطعم: «بغال سمينة»

ورافقها إلى السوق وترك لها حرِّيّة شراء ما تشتهي، لكنّها لم تجلب معها إلّا سلّة مصنوعة من قصب عسلي لامع لقطّتها «نيغرو»، كذلك قفصًا كبيرًا من القصب نفسه لحمامتيها

نادجا، والسيّدة «تريس»

ألماظ خانم، تكره النساء ذوات البشرة البيضاء.

و«نادجا»، فتاة شابّة بالغة البياض، ترتدي ثوبًا غاية بالشاعريّة.

«نادجا» تتواجد دائمًا حيثما يتواجد البكباشي محمود.

وترافق المدام زوفينار، مثل ظلّها أكثر ما لفت الخانم أنّ زوفينار تقول أشياء ذكيّة بشأن الحبّ.

ذلك مثل قولها في إحدى السهرات: «الحبّ كغيم السماء شيء ما يتجمّع. ثم يتبدّد».

قالت ذلك بعفويّة وذكاء وابتسمت للكونت وهي تقول: «أوف. ويلي، رائحتك تبغ. أعرف أنّك تضع غليونك في فمك قبل أن تدخل رجليك في سروالك. لكن يجدر بك الاستحمام على الأقلّ لأجل عروسك الصغيرة».

جسّ الكونت شاربيه بحركة معتادة وقال: «مهلك عليّ يا ست تريس»، بينما عيناه ساهمتان بعروسه.

«تريس» بالفرنسيّة تعني العدد ثلاثة عشر وقد اشتهرت السيّدة زوفينار بمراهنتها على هذا الرقم في كازينوهات الجنوب الفرنسي. ونادرًا ما كانت تخسر فأطلق عليها أصدقاؤها لقب: السيّدة «تريس»

السيّدة «تريس» أو زوفينار. كانت تمتلك قناعة مختلفة عن غيرها بشأن الرقم ثلاثة عشر، كانت تقول: «ليس عددًا غير محظوظ، لكنّه رقم التغيير في المخطّطات والمكان، تتابع السيّدة «تريس» كلامها عن الرقم ثلاثة عشر الذي بدت مولعة به، فيما تركّز نظراتها على الكونت الذي بدوره لم يرفع بصره عنها «قيل في الكتابات القديمة إنّ الذي يفهم العدد ثلاثة عشر سيُمنح قوّة وسيطرة، يُرمز إليه بصورة هيكل عظمي مع منجل يحصد البشر في حقل نابت فيه عشب حديث، حيث تبدو الوجوه والرؤوس نامية من كلّ جانب، إنّه عدد الثوران والدمار، رمز قوّة إذا استعملت خطأ ستعود بالدمار على ذاتها، عدد تحذير من المجهول»

كانت سهرة يخيّم عليها عطر الأوريغن المستخلص من نبتة المردقوش، والذي وضعته الفتاة نادجا بسخاء بالغ، جعل ألماظ خانم ترمي ملاحظة خبيثة: «عندما يُكثر أحدهم من العطر فإنّه يريد أن ينسى حبًّا مؤلمًا في حياته»

زوفينار تتجاهل ملاحظة الخانم السمراء، وتسأل الكونت الغارق بمراقبتها، وترصُد كلّ ما تقوله وهي تداعب قاعدة قنّينة

مياه «إيڤيان» السويسريّة التي توضع فقط على طاولات ركّاب الدرجة الفاخرة في الباخرة «أوره نوڤ»: «عزيزي كرم، بعد حياتك الملوّنة كريش ببغاء مكسيكي، قل لي أهمّ شيء يمكن أن تقوله عن الحبّ؟»

بعينين تكاد تُسمع فيهما طقطقة اللهب، قال الكونت لزوفينار، كمن يقول كلامًا نهائيًّا بعد صمت طويل «في الحبّ كما في الحرب لا تستعاد الفرص الضائعة»

زوفينار، لم تجاوبه بشيء. فقط صمتت صمتَ امرأة لها وجه لكي تُحبّ.

فيما الكونت ظلّ، مثل بطل مسرحيّة إغريقيّة، مقيّدًا مكمّمًا أمام قدره.

تأخذ القطّة نيغرو قيلولتها بين ذراعيْ ألماظ التي تنقل عينيها بين البحر الذي تخلّفه وراءها الباخرة وسماء تحاول أن تختلق الغيوم على ارتفاع شاهق.

حيزوم الباخرة يشقّ بطن الماء صوب مرسيليا ولمدّة ساعتين، سارت الباخرة بين أرصفة أُعدّت لمرسى البواخر

خلال ذلك جهّز المسافرون حالهم للنزول من الباخرة التي ألقت مرساها محاذية للرصيف المعدّ لشركة السفريّات.

الخانم تأبّطت ذراع الكونت وتوارت بثياب من الدانتيل والموسلين الأسود مع قبّعة بيضاء تتناغم مع قفّازاتها الحريريّة البيضاء، ومن تحت دانتيل القبّعة المرخي فوق عينيها، راقبت

نادجا وسيّدتها زوفينار، حيث بدا موظّف الأمن، الذي كان يُجري التدقيق اللازم، مأخوذًا بنادجا التي منحته بضع ابتسامات خجولة بطيب خاطر إلى أن جاء موظّف كُتب على قبّعته «p.l.m. correspondant» سألهم إذا كانوا يحملون شيئًا من الموادّ الممنوعة «السبيرتو والسلاح والعرق»، وأعطاهم تذكرة باستلام حقائبهم شرط تسليمها لهم في المحطّة ليتسنى لهم التجوّل خلال ذلك في مرسيليا لكن ذلك لم يحدث، لأنّه سرعان ما وقعت نادجا في ورطة حين عثر رجل الأمن على مسدّس بحوزتها

أنكرت تمامًا علمها بوجوده بين أغراضها ولأكثر من ثلاث ساعات، انشغل الكونت والبكباشي والسيّدة زوفينار بتخليص نادجا من تلك الورطة، فيما ألماظ كانت تراقب الوضع بكثير من اللامبالاة وبشيء من الاندهاش من الهلع الذي أبدته السيّدة زوفينار خوفًا على نادجا والقطّة «نيغرو» مستكينة بين ذراعيِّ الخانم كأنّها متكلّسة هناك منذ زمن بعيد.

استقرّت أمتعتهما في فندق «جنيڤ» في شارع «كابيندر»، أجمل شوارع مرسيليا الكونت تعمّد الإبطاء في مرسيليا، تفاديًا لغيرة ألماظ من نادجا وكرهها لزوفينار. المرأتان غادرتا باتّجاه باريس.

الخانم بدت أكثر مرونة ولطفًا عن اليومين السابقين وسعيدة بتلك الكلمة التي تصدر من خادمتيها لور وكارو: «إيشش»، كلمة تعني «حاضر يا سيّدي» بالحبشيّة. وكلمة «بروهايتو» التي تعني «إن شاء الله».

لور وكارو

الكونت غيّرَ اسميهما، لور كانت تحمل اسمًا صعبًا للغاية كما شرح لألماظ. كان اسمها «وزروزوريتو»، أمّا كارو فكانت تحمل اسمًا أكثر تعقيدًا نسيه الكونت تمامًا

اشتراهما من أحد حجّاب أميرة الحبشة وابنة الإمبراطورة تايتو، التي كانت قد بنت لابنتها قصرًا جميلاً على سفح جبل محاط بالغيوم سمّته «أديس أبابا» أي الزهرة الجديدة، وجلبت أجمل فتيات الحبشة لخدمة الأميرة وحاشيتها

الكونت دفع خمسين ريالاً ثمنًا للور وهذا كان يعتبر في الحبشة سعرًا باهظًا لور جارية مسيحيّة تعمل بقصر النجاشي، في خدمة الإمبراطورة، تنهمك نهارًا بمهنتها، تخليص العسل من شمعه، وليلاً فتاة للمتعة، تُرسل كلّ يوم إلى غرفة مختلفة. وقيل إنّ أحد قوّاد جيش النجاشي الكبار، اسمه فيروز، كان يفضّلها

بسبب مؤخّرتها الممتلئة والمكوّرة بشكل مدهش. والكونت اشتراها بسبب مهنتها الليليّة بعد أن أطراها ذلك الحاجب الذي يبيع خلسة بعضًا من جواري القصر وذلك يتمّ بالاتّفاق مع بعض القهرمانات العجائز تُرحّل الجارية للمشتري، والقهرمانة مهمّتها إعلانِ نبأ إصابة الجارية بمرض معد، ممّا اضطرهم لاستبعادها

وكارو، جارية وثنيّة كانت تعمل في قصر «أديس علم»، أي العالم الجديد باللغة الأمهريّة، القصر الذي بناه النجاشي له على بعد عدّة ساعات من قصر «أديس أبابا» وكارو كانت تعمل ليلاً نهارًا على إسعاد الذكور الموجودين في القصر بأيّة طريقة كانت. وهذا كان مطلبًا مهمًّا للكونت.

خلال عدّة سنوات في خدمة الكونت، تعلّمتا اللغة العربيّة؛ وارتدتا الثياب الشرقيّة تارة والأوروبيّة تارة أخرى، تِبْعًا لأسفار سيّدهما الذي يعشق الترحال؛ وقامتا بكلّ ما بوسعهما لإسعاده وإمتاعه

وكان يحبّ أن يروي لضيوفه قصّة حصوله عليهما، وكيف أنّهما جاريتان متميّزتان بالمقاييس الحبشيّة، ذلك لأنّهما تنتميان لقبائل تشتهر بحسن وحرارة نسائها لور تنتمي لجنس يدعى «قوراغي»، وكارو تنتمي لجنس آخر يُدعى «جمالكا»

الخانم، التي تربّت في كنف أسرة شاميّة مسيحيّة، لا تستنكر كثيرًا وجود السرائر والإماء في المنزل بغاية إرضاء سيّد المنزل. فدمشق مدينة شهيرة بتجارة الرقيق وباستقدام الجواري من كلّ

الأجناس قوقازيّات، وكرجيّات أي «جورجيّات»، وشركسيّات، وحبشيّات.

منذ اليوم الأوّل لها برفقة زوجها، عرفت مهمّة الجاريتين الليليّة، بالإضافة إلى أعمالهما النهاريّة. للحقّ، كان عليها أن تعترف أنّهما لا يوفران عملاً بُغية راحتها وهنائها

ألماظ المعتادة على الأكل الهندي في منزلها، أحبّت تلك الأصناف الغريبة من المأكولات الحبشيّة التي كانت تُعدّها كارو ببراعة، مثل «الإمباشا»، أكلة تحضّر من دقيق القمح، وتطبخ بالفرن مثل الخبز وخبزة «الأدببو» التي تُصنع من دقيق الحنطة. و«الغوتنفو»، عجين يُحشى قطعًا مفرومة من اللحم ويُقلى بالسمن. و«الكلكل» نوع من اللحم المسلوق. الكونت كان مذهولاً من قُدرة الخانم الصغيرة على أكل «الرندو» ـ اللحم النيء المغمّس بالفلفل الأحمر، تأكله من دون أن تبدو عليها علامات التأثّر بحدّة طعم الفلفل. ذلك ذكّره بما قاله له رجل أميركي قابله ذات مرّة على متن إحدى السفن المبحرة إلى الهند، عن حقيقة أنّ النساء اللواتي لا يتأثّرن بمذاق الفلفل الأحمر الحادّ، قادرات على ارتكاب الخيانة بسهولة كبيرة.

ألماظ، مثلما تستمتع بمذاق المأكولات التي تعدّها كارو، كانت تمتعها حكايات لور التي تحكيها لها عن وطنها البعيد، الحبشة. وفي كلّ مرّة تطلب الخانم الصغيرة من لور أن تقلّد لها صوت نواقيس الكنائس في بلدها، فالكنائس هناك لم تكن تعرف النواقيس أو لم تكن تملكها، كلّ ما هو موجود أحجار مختلفة

مربوطة بالحبال يمسّ بعضها بعضًا فتصدر صوتًا يشبه صوت الناقوس.

الجاريتان حافظتا على عادتهما الحبشيّة بإضافة الملح لقهوتهما، وكلّما قابلتا الكونت سيخاطبانه بكلمة «جانهوي». وحده الكونت يعرف أنّ تلك الكلمة معناها «الإمبراطور» باللغة الحبشيّة، بينما يشرح لضيوفه أنّ الكلمة تعني «سيّدي». وفي الليل كان يطلب منهما ترديد تلك الكلمة لأنّها تستثيره بشدّة.

الكونت كرم شاهين الخوري

الكونت كرم هو الابن الوحيد للكونت شاهين الخوري، الذي أورثه لقب الكونت.

شاهين الخوري لم يكن «كونتًا» عندما غادر بلده لبنان.

شاهين الخوري امتلك تاريخًا مهمًّا لرجل بدأ حياته مدرّسًا في مدرسة المرسلين الأميركان. يعرّب ما يُطبع في مطبعتهم، ولاحقًّا استطاع أن يكون ضمن مجموعة طلّاب درسوا الطبّ في مدرسة العيني بمصر وخدم في الجيش العثماني طبيبًا برتبة «سرهزار»، وبعدها أنعمت عليه الحضرة السلطانيّة بوسام الشرف مكافأة لتفانيه بالخدمة. وطلب أن يصبح طبيبًا ـ أوّلاً للعساكر في بيروت.

كان سعيدًا وهانئًا إلى أن هجرته زوجته وأمّ ولده الوحيد

وفرّت إلى أميركا مع شقيقه. شعر بعار كبير فرهن كلّ صكوك أملاكه في البنوك، وحصل على مبلغ مالي كبير وغادر لبنان إلى فرنسا

هناك أشار عليه أحد معارفه بشراء بلدة على بحر المانش، لأنّ سكّة حديديّة ستصل البلدة وبعدها يصبح سعرها مضاعفًا

وخلال سنوات قليلة، امتلك منزلاً فخمًا في الشانزلزيه.

عندما أنعم سعيد الذكر البابا بيوس التاسع على الشيخ شاهين الخوري لقب «كونت روماني» وعلى بكر أنجاله وسلالته من بعده في صيف سنة ١٨٧٧، كان كرم لا يزال فتى مراهقًا يعيش مع أبيه في جادّة الشانزليزيه الباريسيّة، ويوسّع شبكة علاقاته الغراميّة بين الجاليات العربيّة الموجودة في باريس، متجنّبًا العائلات اللبنانيّة والسوريّة، حتى لا يقع في مأزق محرج مع فتاة قد لا تتأخّر في أن تشكوه لأبيه كما حدث له مع الأرمنيّة «زوڤينار»

زوڤينار ابنة لعائلة أرمنيّة ولدت في دمشق وتربّت في باريس. عمل أبوها في مجال التصوير الفنّي ولقي نجاحًا كبيرًا في العاصمة الفرنسيّة.

حدث أنّ زوڤينار كانت زميلة كرم الخوري في معهد الفنون، ووقع في غرامها وفي ليلة عاصفة تركته يفضّ بكارتها

في اليوم التالي، تجاهلها وغازل زميلة لها، وأكثر من ذلك دعا تلك الفتاة إلى مرافقته في رحلة استمرّت أشهرًا إلى مصر!

عقب عودته، عاد يطرق باب زوفينار التي لم تعد تحمل له أكثر من الرغبة بالانتقام تجاهلته تمامًا كما فعل هو معها قبل سنة. وبعد عدّة أشهر فاجأته مجدّدًا، وتزوّجت من أرمل تونسي ثري كان قد أدمن على رؤية أجساد النساء العاريات في مرسمه.

مرسم ذلك التونسي خال تقريبًا من اللوحات، فقط كان مكانًا يجلب إليه النساء ليعرّيهنّ. ليجلسن كموديلات. تنتهي موديلاته منهكات في فراشه الوثير الذي يتصدّر المرسم.

وحين وقفت زوفينار أمامه عارية، لتكون موديله الجديد، لم تسمح له بتحسّس بياض بشرتها النادر بذريعة أنّ ذلك البياض الفاقع قد لا يكون سوى طلاء. لكن زوفينار ارتدت ثيابها على عجل وغادرته وهي تعرف أنّه سيفعل المستحيل ليحظى بجسدها، وكان ذلك المستحيل أنّه تزوّجها وسط دهشة الجميع، والذين يعرف غالبهم تاريخ زوفينار القصير والحافل بكلّ أشكال الذكور. فقد سرت عنها إشاعة تقول إنّها قبلت تحدّي أحد القناصل الأجانب في باريس وضاجعت حصانًا!

وحده الكونت كرم كان يعرف أنّ ذلك الكلام مجرّد إشاعة لا أساس لها من الصحّة، أطلقها بنفسه انتقامًا من صدّها له وإثارة غيظه عبر مرافقة أصدقائه المقرّبين.

عاشت زوفينار ثلاث سنوات برفقة العجوز التونسي. أنهتها عقب موته

دفنته وراحت تتمتّع بمباهج الثروة.

اشتهرت بولعها بلعب القمار. تقضي أوقاتًا طويلة في كازينوهات مونتي كارلو.

كانت اللاعب الوحيد الذي يجرؤ المراهنة على الرقم ثلاثة عشر ودائمًا تخطّط للاقتران من رجل جديد.

حين عثر عليها كرم مجدّدًا، وقد فَتَلَ شاربيه للأعلى وملأ جيوبه بالمال الذي يغوي أيّ سيّدة جميلة، كانت قد اكتملت أنوثتها وارتدت ثوبًا أوروبيًّا فاضحًا يكشف عن نهدين ممتلئين ومتّحديين. دوّخته، بكى على ركبتيها، مسحت دموعه بمنديل حريري مطرّز عليه الحرفان الأوّلان من اسم رجلها الجديد، وتابعت رحلة انتقامها منه. بعد شهرين كانت تبحر إلى لبنان مع رجل جديد.

وقتها نصحه أبوه بالزواج من غيرها وحين فشل بإقناعه، جلب له مومسًا صغيرة مدرّبة في أشهر بيوتات باريس المخصّصة لإرضاء نزوات الرجال.

بعد ذلك، ولأكثر من ثلاثين سنة ظلّ الكونت رجل نزوات، إلى أن وجد نفسه محاصرًا بمأزق العمر وعليه أن ينجب وريثًا يحمل اسمه.

ألماظ خانم كانت العروسة الشابّة التي اختارها الكونت بإشارة من جدّتها «بابور» الشهيرة في دمشق..

«بابور»

«بابور» الحسناء الهندوسيّة التي لم تورّث شيئًا من جمالها الأخّاذ لحفيدتها ألماظ، أكثر من لون بشرتها الغامق، حظيت بماسة زرقاء يقال إنّ وزنها أكثر من اثني عشر قيراطًا، لقاء قلبها

هكذا ظنّ يومها الفتى المحتال «نجمي» الذي قرّر مغادرة دمشق في النصف الأول من القرن التاسع عشر ليهرب من نعته بـ «اللقيط» فوصل منطقة «جوليكندا» في الهند الشهيرة بمناجم الماس.

بعد عمل لمدّة خمس عشرة سنة، عاد إلى دمشق ثريًا، يرتدي زيّ تاجر هندي: جبّة مطرّزة وشالاً ملوّنًا وعمامة جميلة، ترافقه فتاة باهرة الحسن اسمها «بابور» زَعَم أنّه اشتراها من أهلها في الهند.

قيل إنّ نجمي أطلق عليها اسم «بابور»، اسم أحد ملوك المغول، لأنّ الفتاة كانت أعند من بغل ولا تكنُّ له الحبّ مطلقًا كما أنّها ظلّت تمارس شعائر ديانتها الهندوسيّة ورفضت اعتناق دين الإسلام.

سرعان ما تناسى أهل دمشق أصل «نجمي» المجهول، وحصل على زوجة له، ابنة أحد أعيان المدينة. وعاشت «بابور» محنتها مع زوجته التي لم توفر طريقة لإذلالها لكنَّ نجمي ظلّ متعلّقًا بفتاته الهندوسيّة التي بدأت تتكلّم بضع كلمات بالعربيّة. وسرعان ما شرحت لسيّدتها أنّ زوجها أصبح غنيًّا عندما اختلس مجوهرات معبد هندوسي، وأنّ تلك الماسة الزرقاء الشاحبة التي يباهي بها، كانت فيما مضى عينًا للإلٰه «فيشنو»، قبل أن ينتزعها نجمي من تمثاله ويهرب!

وكان أن كلّف ثلّة من اللصوص باختطاف الحسناء «بابور» من أهلها بعد أن رآها في أحد احتفالاتهم، وأكّدت للزوجة المصدومة أنّ لعنة من الإلٰه «فيشبنو» ستحلّ عليها إذا ظلّت زوجة لنجمي المحتال.

في البداية لم تكترث الزوجة لتحذيرات «بابور» لكن مع وفاة وليدها الأوّل، ثم موت الثاني، والمرض الذي غدا يلازمها بدأت تصدّق تحذيرات محظيّة زوجها

وذات مرّة عاد فيها نجمي ثملاً، وتشاجر مع زوجته. خلال ذلك، نعتته باللقيط واللصّ الذي اختلس عين ربّ الهندوس.

نجمي لم يتمالك نفسه، ووجّه ضربة قويّة بعصاه على عنق

الزوجة. قتلها بضربة واحدة. ووجد نفسه حائرًا بتبرير فعلته، فراح ينادي بأعلى صوته حتى اجتمع كلّ رجال الحارة، وراح يقصّ عليهم كيف أنّه فوجئ برجل في مخدعه وكيف أنّ زوجته حاولت استيقافه فيما كان يلاحقه، وأنّ الرجل استطاع الفرار، وأنّه لم يتمالك أعصابه فضرب زوجته الخائنة ضربة مبرّحة، قضت عليها

هنا ظهرت «بابور»، احتمت برجال الحارة، وراحت تشرح لهم ببضع كلمات عربيّة بالكاد مفهومة أنّه يكذب، ورائحة الخمر التي كانت تفوح منه لم تساعده على تمرير كذبته.

«بابور»، أخذت فرصتها لتقصّ على أهل الحارة ما أدهشهم عن نجمي

كان يتاجر بالأفيون والعبيد على متن سفن، تشهر بضاعة مكوّنة من التوابل والقواقع اللمّاعة، لتخبّئ في جوفها البضائع الحقيقيّة من نساء دارفور والحبشيّات اللواتي كان يبلغ سعر الواحدة منهن مئة وخمسين دولارًا

ثمانين دولارًا كان سعر العبدة من أواسط أفريقيا! كنّ يُبعنَ في عُرض البحر لتجّار يأخذونهن إلى أميركا وروت لهم ما حدث معها خلال رحلة العودة إلى البصرة، حين كانا على متن سفينة مشبوهة تجوب مياه الخليج العربي بين مسقط وبومبي وبوشهد.

تعقّبتهم سفينة إنكليزيّة مسلّحة وقذفتهم مدافعها بنيران لم تصب السفينة، لكنّها اضطرّتها إلى أن تلوذ في ممر مائي ضيّق

تحميه الصخور المرجانيّة، هربًا من فرقاطات حربيّة أجنبيّة أخرى كانت تجوب الخليج بحثًا عن سفن القراصنة.

ظلّت السفينة هناك عدّة أيّام. خلالها حُبست «بابور» في غرفة ضيّقة تفوح منها رائحة عفونة شديدة بعد أن أوثقها نجمي بالحبال، وفشلت محاولتها بالانتحار عندما حاولت ابتلاع جزء من الحبل الموثقة به.

لكنّ نجمي أخرج الحبل من بلعومها في الوقت المناسب، وانتهت محاولة انتحارها بالإقياء، واغتصاب عنيف من قبل نجمي.

ولأيّام طويلة كان على «بابور» أن تكتفي بالتطلّع عبر كوّة صغيرة إلى الأفق البعيد حيث البحر وجبال سوداء مسنّنة.

وكلّما اقتربت السفينة من ميناء، من كوّتها الصغيرة، تراقب رجالاً تتدلّى من أكتافهم السيوف، ويمسكون بدروع خشبيّة مستديرة وصغيرة تزيّنها مسامير من الفضّة. يطيلون شعورهم ويكحّلون عيونهم.

وعن بعد تلمح سلال التمور والرمّان والعنب. وفي كلّ ميناء، كانت السفينة تكمل النقص في بحّارتها الذين يموت بعضهم بسبب الأمراض، أو يعجزون عن أداء واجباتهم على ظهر السفينة بسبب التهابات مفاصل أقدامهم.

كذلك تتزوّد السفينة بالماء والأكل والفاكهة وتغادر مرّة أخرى إلى عُرض البحر

كانت السفينة كلّما اقتربت من ميناء تظنّ «بابور» أنّها ستنزل إلى البرّ أخيرًا لكنّ وجودها على ظهر السفينة استمرّ لعدّة

شهور، ليتمّ خلالها نجمي صفقاته من بيع الأفيون والعبدات، وليعود بها بعد ذلك إلى دمشق ويجعلها عبدة في منزله!

نالت «بابور» حرِّيّتها واستأجرت شابًّا مسيحيًّا ليعيدها إلى أهلها، مستثمرة ما كانت تملكه من مجوهرات كان سيّدها يحاول بها استرضاءها

كذلك حملت معها الماسة الزرقاء التي قرّر وجهاء الحارة أنّها من حقّ «بابور» وقومها، ومستغربين في الوقت نفسه من ذلك الإلٰه الذي يسمح للصِّ أن ينتزع منه عينه!

لكن رحلة «بابور» لم تكتمل كما أرادت، لسببين الحبّ واللصوص.

خلال مدّة الرحلة وقعت في غرام الشابّ المسيحي «سالم»، الشجاع الذي استطاع حمايتها خلال غارة من قطّاع الطرق هاجمت القافلة المتّجهة إلى بغداد. وخشيت من المزيد من المخاطر وهي التي لم تنس بعد مخاطر الرحلة السابقة.

عادت إلى دمشق، واعتنقت المسيحيّة لتتزوّج مرافقها الذي ساعدته بما تملك من مجوهرات بتأسيس تجارته بالسجّاد.

خلال ثلاثة عقود كانت عائلتها الصغيرة واحدة من أثرى العائلات المسيحيّة بدمشق.

«بابور» كانت قد أصبحت عجوزًا حين أصرّت على منح الماسة، عين الإلٰه فيشنو، لحفيدتها ألماظ وهي تتزوّج من الكونت كرم شاهين الخوري، وترافقه إلى باريس.

باريس

لم تكن ألماظ معنيّة بالسياسة، ولم تعرف أو تحاول أن تعرف لماذا خسرت المعارضة الدمشقيّة لصالح جماعة من المعتدلين المدعومين من الاتّحاديين الأتراك، وكيف وجد المثقّفون المعارضون أنفسهم محكومين بأحكام النفي الغاضبة، وأحد الصحافيين حكم عليه بالنفي إلى الهند لمدّة «مئة وثماني سنوات»

فكان أن اختارت «المعارضة» الخروج من دمشق «اختياريًّا» قبل أن يصدر حكم «إجباريّ»، فتوزّعوا بين القاهرة وباريس.

كان واضحًا أنّ الكونت كان معجبًا ومؤيّدًا لأفكار المعارضة ومصرًّا على الليبراليّة، وإن اقتصر دعمه على «المعنوي» وأحيانًا قليلة «المالي»، وبشكل سرّي للغاية، ويشاركهم الاستياء من بعض الذين التحقوا بخطّ «الاتّحاد والترقّي»، ويكون غاضبًا فقط

عندما يقول عنهم: «فعلوا ذلك لغاية تسلّق بعض المناصب والحصول على نفوذ كان سابقًا حصرًا بأيدي أعيان دمشق الكبار»

ولا ينسى أن يستحضر مرحه المعتاد وهو يسأل متهكّمًا عن سرّ السنوات الثماني المضافة إلى المئة في أحكام النفي

ألماظ ملّت من سماع الحديث نفسه والشتائم ذاتها لكنّها تجد نفسها مجبرة على الجلوس والإصغاء طالما زوڤينار ونادجا متواجدتان.

نادجا توزّع ابتساماتها بسخاء وتلعب الورق بخفّة، وتسمح لأيدي الرجال الجالسين بتحسّس جسدها بذرائع مختلفة. وكانت تتقن أصول لعبة الشطرنج بشكل مذهل، ما جعلها تغادر كلّ سهرة محمّلة بأطنان من المدائح الباذخة، الخارجة من شفاه الساهرين الذين يودّعون جسدها الشهيّ بعيون متحسّرة ويعودون لمناقشة فكرة تنصيب ملك أو خليفة عربي بدلاً من العثماني.

ألماظ تمشّط فرو قطّتها السوداء «نيغرو»، من دون أن تنسى كلمة واحدة ممّا سمعته من فم الكونت المراوغ، وهو يتحدّث خلال لعبة شطرنج مع باشا تركي يصطحب معه ممثّلة فرنسيّة صهباء طويلة، عن ولعه بالنساء صاحبات السوابق في الحبّ، وكيف تثير فضوله الكسرات المبعثرة من التاريخ الشخصي التي تتركها وراءها امرأة مجرّبة تمتلك ماضيًا مدوّخًا

هل تخطئ ألماظ إذا ما خمّنت من كان يقصد؟ كانت على

يقين أنّه يقصد السيّدة «تريس» التي لا تخفي ملامحها ماضيًا صاخبًا منقوشًا في عينيها وموزّعًا على تقاسيم وجهها

كان على الخانم أن تستقبل زوّارًا مختلفين ومتنوّعين في المنزل الكبير الذي يكاد يكون قصرًا كان بناءً قديمًا مبنيًّا على الطراز القوطي. تغطّي نوافذه ستائر من الغوبلين المصوّرة بحروب ومعارك، وصالات الضيافة مجهّزة بكلّ ما يلزم من أدوات اللعب كالشطرنج والنرد والبيزيك وجميع أشكال لعب الورق كالبوكر والباشكا والأتوزير

كانت أوّل مرّة ترى نابليون، وذلك في قاعة البلياردو. في صورة زيتيّة نهض واقفًا بقامته المربوعة ليضع التاج على رأسه وفي الجدار المقابل، عدّة صور زيتيّة تمثّل وقائع الفرنسيين مع العرب في الجزائر تحت قيادة الأمير عبد القادر الجزائري.

الخانم وجدت نفسها شبه ضائعة وسط النقوش الرخاميّة المذهّبة والخزائن المملوءة بمشغولات «فينيسيّة»، من زجاج وأطباق ثمينة مزيّنة بتصويرات شمشون ودليلة وهيرا وزوس وديانا وقيشاني إسباني عربي صنع في رودوس، وطائفة من أنواع الإسطرلاب والبوصلة والساعات بعضها من القرن السابع عشر الجدران المكسوّة بلوحات ميثولوجيّة ازدحم فيها هرقل مع ديانيرا وربّ الحبّ الغامض إيروس.

* * *

كانت ألماظ من النساء اللواتي يفضّلن الابتسام على الاعتراف بالحزن. .

كانت بارعة في اختيار شكل البرنيطة التي تناسب تقاطيع وجهها، تميل إلى تزويق حديثها بكلمات فرنسيّة، أحيانًا تفعل ذلك بشكل مفرط لتحرز شيئًا من المباهاة بين نساء مثقّفات أنيقات تقابلهنّ أينما تحرّكت في مجتمعها المخملي، غالبهنّ جميلات مع كمّ هائل من اللمعان والبريق وحبّ الظهور. مجبولات بذلك التوق الأصيل والعاري والمتناقض والمحتال صوب العلوّ

كان تأثير صالون البرنسيس «نازلي فاضل هانم» كبيرًا على أفكار الكونت بشأن النساء

في عصر كان اقتناء المحظيّات والجواري من عادات الأمراء والأغنياء وتقاليد المجتمع العربي بكلّ أديانه وطوائفه. وإن كان أخفّ كثيرًا وأكثر سرّيّة لدى العائلات المسيحيّة

البرنسيس نازلي هانم المصريّة التي تنقّلت مع زوجها كسفير للدولة العثمانيّة بين العواصم الأوروبيّة. وفي باريس بالذات كانت إقامتها أطول من غيرها، حيث نقلت منها فكرة الصالون إلى قصرها في مصر

وكُتب لها أن تتعرّف وتُعجب بأشهر وأهمّ دعاة الحرّيّة والإصلاح لذلك الزمن، مثل محمّد عبده وجمال الدين الأفغاني. واشتهرت بصداقتها العميقة مع أحمد عرابي وسعد زغلول

وقاسم أمين كان من الملازمين لصداقتها ولصالونها الذي افتتحته في القاهرة في ثمانينيّات القرن التاسع عشر، وذلك عندما عادت إلى القاهرة كسيّدة مثقّفة تتحدّث وتتقن عدّة لغات، وقادرة

على مجادلة ومناقشة الرجال بندّيّة وثقة.

وجلبت البرنسيس نازلي معها كلّ ما أمكنها من باريس، واتّخذت لإقامتها قصرًا وراء قصر عابدين أسمته «ڤيلّا هنري» في شارع كان يُسمّى شارع «لاكامباني»

أثّثته بأفخر الأثاث والرياش من طراز لويس الخامس عشر، الذي كانت تفضّله.

وهناك اجتمع صفوة أهل العلم والأدب، وخلاصة الفكر الراقي الذي انبهر بأنوثة جديدة أخذتها من باريس.

فلم تكن تظهر نازلي هانم إلّا بتسريحة شعر، مثل تلك التي خلّدتها بورتريهات رينوار ومانيه، ورسّامين آخرين. وترتدي فساتين أقصر من المعتاد لتلائم الترامواي الذي انتشر في ذلك الوقت.

لهذا كان على ألماظ أن تسرّح شعرها على طريقة سيّدات «رينوار» كان الكونت يراسل نازلي هانم من وقت لآخر ويتناقشان في أمور كثيرة أهمّها كان متعلّقًا بوضع المرأة وضرورة أن تخلع الحجاب.

ألماظ في باريس، وجدت في انتظارها كلّ عائلات البيوتات التجاريّة السوريّة واللبنانيّة، وكان عليها أن ترتاد محلّات «رحيم، وبوشديد، وشقير، وزوين، وشحادة، وجاسر إخوان، ودوماني، وقزّي، وبيجاني، وشخيري، ويانسوني» وأن تصادق زوجات تجّار المجوهرات مثل عائلات «كسّاب، ونصبة» وعائلات أخرى اختصّت بالعطريات مثل محلّ «بشّار ملحمة»، الذي أحرز شهرة واسعة بين فرنسا وإنكلترة.

في دعوة عشاء على شرف العروسين في منزل الكونت قريصاني، مدير البنك الفرنساوي المصري في باريس، تعرّفت على أهمّ الشخصيّات في الجاليتين السوريّة واللبنانيّة: تجّارًا ومصرفيين وأدباء، منهم ميشيل بيطار مترجم رواية العبّاسة أخت الرشيد، وجورج سمنة الذي يصدر جريدة «الطان» الشهيرة.

وفي أوقات فراغها، كان عليها أن تطّلع على كلّ ما تحتويه مكتبة القصر الثريّة بكلّ أنواع الكتب كذلك مخطوطات ومطبوعات نادرة منها لرابليه وراسين وروسو، وبلزاك الذي أعجبها كثيرًا

لم تكن سعيدة بمصادفة السيّدة زوڤينار وفتاتها نادجا في حفل عشاء في منزل أحد الكونتات ذوي الأصول العربيّة.

ألماظ، تفادتهما بذكاء لكنَّ زوڤينار التقطتها وحيدة في ركن مظلم في قاعة البلياردو، حيث نسيها الكونت عقب أوّل كأس من الويسكي

ذلك المساء، سألتها زوڤينار بملامح لا تشي بشيء: «يا خانم، الرجال نوعان، نوع عاطفي ونوع لا يطاق، بأيّهما حظيتِ؟» ابتسامة الخانم الخاوية أعطت الجواب للسيّدة «تريس» دونما صعوبة، لكن ألماظ اقتربت منها وهمست في أذنها بثقة وهدوء «الرجال يملّون من المؤخّرات نفسها، حتى لو كانت مؤخّرة المحظيّة المفضّلة» يومها كانت ألماظ ترتدي ثوبًا من صنع «دوسيه» ـ أحد كبار مصمّمي الموضة في باريس، ثوبًا متماوجًا لونه بين أحمر المرجان وأحمر البوردو، لكن عمق اللون

الأحمر لم يخفف من صفار سحنتها الممتقعة وسط فتيات ونساء جميلات وأنيقات، يرتدين ملابس من بيوتات أزياء باريسيّة معروفة أمثال بوكين وفورت.

في نهاية كلّ سهرة، كانت تحظى بلمسة بروتوكوليّة من يديّ الكونت وهو يساعدها على ارتداء معطفها المكنّر بفراء السمّور ليغادر كلّ منهما في طريق.

أصبحت ألماظ محتقنة بشكل شبه دائم بسبب تكرار زيارات زوڤينار ونادجا إلى القصر، فكان عليها أن تحضّر لتلك السهرات الطويلة، التي تقام حول طاولة البلياردو لضيوف الكونت، بينهم أعضاء سرّيُّون في جمعيّة سريّة مناهضة للأتراك تأسّست في باريس عام ١٩٠٩ هي «جمعيّة العربيّة الفتاة»، التي تنادي باستقلال نهائي عن الإمبراطوريّة العثمانيّة. تتألّف تلك الجمعيّة من مسلمين ومسيحيين.

ونادجا تثير حيرة ألماظ في إصرارها على مخالطة المسلمين منهم. فيما كلّ المعلومات التي جمعها فيليب بناء على رغبة شقيقته ألماظ عن نادجا، لم تزد إلّا بارتباكها بشأنها وحين عثرت ذات صباح على حمامتيها نافقتين، بكت وازداد حزنها وشكّها عندما أخبرتها خادمتها لور أنّ نادجا كانت قبل ليلة تلاطف الحمامتين.

ألماظ شكت أمرها للكونت، ولم يدافع عن نادجا، إنّما صمت كرجل يعرف أنّ النساء يمتلكن مخيّلة واسعة من أجل الشر أكثر بكثير من أجل الخير!

ألماظ، استغلّت سهولة المواصلات والتلغراف والتلفون والبريد لتصنع لنفسها عالمها، وتبعد شبح الملل.

استغلّت كلّ ما يمكن أن تعلّمه العائلات الدمشقيّة المسيحيّة الأرستقراطيّة لبِناتهم. اللغتين، الفرنسيّة والتركيّة، وعزف البيانو والخياطة والتطريز لتشغل نفسها عن تجاهل الكونت لأنوثتها

قضت ليالي طويلة وهي تعزف البيانو من دون تعب، حتى لا تسمع شهقات انتصارات زوجها في فراش يجمع فيه الحبشيّتين. فيما اقتصر اجتماعه بها على أدائه واجبه الزوجي في مخدعها لمرّات قليلة بحسب دورة إباضتها على أمل أن تحمل وتنجب الوريث الذي تزوّجها لأجل إنجابه

لور المفضلة لديه، والمتفانية بخدمة الخانم ومراعاتها، انهارت ذات مرّة في غرفة سيّدتها وبكت طويلاً وهي تحكي لسيّدتها ما فعله الكونت معها

فقد اصطحبها إلى سهرة في قصر أحد الأثرياء المغاربة، وطلب منها أن تعرّي نصفها الأسفل وتقف في صفّ من الفتيات، بيضاوات، وسمراوات، وسوداوات. جميعهنّ تعرّين من نصفهنّ الأسفل ووقفن أمام الساهرين، وأدرن مؤخّراتهن وانحنين للأمام في وقت واحد، ليتمّ التصويت على أجمل مؤخّرة. وكان أن كسب الكونت رهانه وصوّت جميع الحاضرين لصالح وركيْ لور ومؤخّرتها.

* * *

من فجوة في سُحب سأمها، أطلّت على القهوة والشاي في مقاهي باريس، تتنقّل بين نوافذها وكراسيها مثل عصفورة عالقة في الفضاء بعد أن اعتادت القفص.

لم يعد يلفت انتباهها شاعر بيده سيجار ضخم، أو رسّام غريب يعتمر بيريه ويرتدي معطفًا من دون أكمام.

هجرت مقهى فلور عندما تأكّدت أنّه أصبح مكانًا مرغوبًا للمعارضة السوريّة الغاضبة، بسبب حملات التشهير التي شنّها الأتراك لمنع انعقاد مؤتمر عربي في تمّوز عام ١٩١٣ يلحّون فيه على الهويّة العربيّة لبلدهم.

وجميل بك كان يشعل حماستهم عبر سفراته المتكرّرة إلى القاهرة، ونجح بضمّ سياسيين لهم هيبتهم إلى الحركة، وإعداد قائمة مهمّة بطلبات إصلاحيّة على الحكومة العثمانيّة أن تقوم بها في الولايات السوريّة.

صباحات كثيرة قضتها وهي تتحسّس سخونة قهوتها مغمضة العينين، تتشمّم رائحة فرحتها المنسيّة في الشام من دون أن تغفل شيئًا من تفاصيل ذكرياتها هناك. كانت حالها مثل حال طير مهاجر نسي طريق العودة.

وحده شقيقها فيليب الذي كان موجودًا في باريس، يدرس في معهد عال ذي سمات عسكريّة معروف باسم أكاديميّة «لويس الرابع عشر»، كان يؤنس وحدتها مع صديقه جورج الشامي الذي كان يدرس المحاماة في السوربون.

ضيفات من دمشق

حين نزلت في ضيافتها بعض من أشهر خوانم الشام مسلمات ومسيحيّات، جئن مع أزواجهن بمناسبة افتتاح معرض السجّاد الذي يقام في باريس سنويًّا، لم تشكُ حالها ولو مجرّد «الشكوى» مع الكونت، لأنّها تعتبر ذلك كما علّمتها جدّتها «بابور» منطق الضعفاء، وينطوي على نمط من الانتقام لا ترضاه لنفسها

كان بين زائراتها موهبة خانم، الإبنة الوحيدة لباشا كان قد مُنح لقبه مقابل خدماته كإداري للولاية.

كانت موهبة خانم تمتلك عددًا من أهمّ بساتين دمشق المرويّة، زوجها قاض في المحكمة التجاريّة في دمشق ترافقهما ابنتها الآنسة «وثيرة»، التي كانت واحدة من الآنسات المسلمات المحظوظات، حين سمح لها والدها بالحصول على قسط من

التعليم الجيّد في إحدى الإرساليّات الأجنبيّة لتعليم البنات المسيحيّات.

وآسيا خانم سيّدة مسيحيّة شهيرة ببراعتها واطّلاعها بالمضاربة بالأراضي، زوجة لرجل أعمال وزعيم علماني في الطائفة الأرثوذكسيّة في باب توما، عمل لفترة ترجمانًا في القنصليّة الروسيّة قبل أن يتفرّغ لتجارة السجّاد، ترافقها ابنتها المثقّفة الآنسة جوليا

ضمّت المجموعة الرجال ـ أزواج السيّدات، واصطخبت أجواء القصر. واستقدمت ألماظ طاقمًا إضافيًّا من الخدم، لتقوم بواجب الضيافة، كما يجب، لأشهر سيّدات حيّ ساروجة أو ما يُدعى بإسطنبول الصغرى في دمشق.

وارتاحت ألماظ لجرأة بعض النساء المسلمات اللواتي أصبحن يلعبن دورًا مهمًّا في التأثير على بعولتهنّ لتدريس بناتهنّ، في وقت عرفت المرأة الدمشقيّة بحبّها للعقارات. فقد كان أكثر من ستّين في المئة من المعاملات في سجلّات محاكم دمشق ـ آنذاك ـ بأسماء النساء، فمنهن البائعة أو الشارية أو الناظرة على وقف أو المستأجرة أو المؤجّرة.

بدت تلك اللحظة منتقاة، فيما ألماظ تعبر الرواق الخلفي للقصر، مسرعة، بسبب البرد القارس، في تلك الليلة الشتويّة المعتمة، حين بلغ سمعها هسيس حريريّ لثوب امرأة محمومة بالحبّ، بصعوبة تبلع تأوّهات مكتومة.

كانا في ركن معتم، تحت شجرة ورد عرّاها الشتاء،

ملتحمين، متسلّطين، مستبدّين وهما يتبادلان عناقًا حارًّا عنيفًا

وقفت ألماظ مبهوتة من حماسة كائنين يتبادلان ذلك الاشتهاء. شحُبتْ، جفّ فمها

كانت متأكّدة أنّ الفتاة هي الآنسة المسيحيّة جوليا الشقراء الورديّة بين ذراعيْ جميل بك الشابّ المسلم المتحمّس لانفصال سوريّة عن العثمانيين، وخطيب الآنسة وثيرة ابنة موهبة خانم.

ألماظ اعتادت التنقّل في قصرها من دون جلبة، عقب حادثة أرعبتها جعلتها طوال حياتها تمشي على رؤوس أصابعها خلال الليل. كان ذلك حين عادت ذات مرّة مع زوجها وفوجئت بالخادمة كارو مقتولة مضرّجة بدمائها، فيما نُبشت كلّ خزائن مخدعها، لكنّ اللصّ لم يعثر على شيء من مجوهراتها التي خبّأتها بمكان لن يحزره أحد. ومن سوء حظّ كارو أنّها نهضت من نومها ومشت حافية كعادتها الأفريقيّة إلى المطبخ ويبدو أنّها فوجئت باللصّ، وجهًا لوجه، وقبل أن تصرخ طعنها طعنة أودت بحياتها!

ألماظ لم تصادف أيّ لصّ عقب ذلك، إنّما دائمًا عثرت على عاشقين يختلسان الحبّ. حين مشت ذات مرّة حافية القدمين صوب قاعة البلياردو، كانت على يقين أنّ تلك الجلبة الغريبة التي سمعتها لم تكن بالمطلق جلبة لصّ. كانت ضوضاء مكبوتة متبادلة بين الكونت وزوڤينار التي بدأت تخسر الكثير في صالات القمار.

ولم يعد ينقذها الرقم «ثلاثة عشر»، فراحت تؤجّر نصفها

الأسفل لشهوات الكونت العتيقة تجاهها، وتحصل على مبالغ محترمة لقاء ذلك.

يومها بالذات، لم تتجاهل ألماظ ما شاهدت، فقد تركتهما منهمكين بلذّتهما وعادت إلى المطبخ لتحضر منقوع الكرز اللزج الذي اعتادت صنعه على الطريقة الشاميّة لخاطر شقيقها فيليب المغرم بالمربّيات والعصائر وكان أن أفرغت كلّ محتوى القِدْر اللزج عليهما في لحظة كان الكونت يتأوّه منتشيًا ومنذ ذلك الوقت لم تعد إلى رؤية زوڤينار ونادجا في قصرها

في الحيّ اللاتيني، حيث أكثر المدارس العالية، كانت العائلات السوريّة والمصريّة ترسل أبناءها للدراسة.

كانت ألماظ قد زارته مرّات كثيرة، برفقة ضيفاتها لتفقّد أحوال أبنائهن وأبناء أشقائهنّ. وفي كلّ مرّة تتأكّد أنّ ثمّة جيلاً قادمًا من الشبّان السوريين سيأخذ معه أفكارًا جديدة عن النساء والحرّيّة والوطن.

بالكاد استطاعت أن تتجاهل ما رأته ليلاً تحت شجرة الورد.

بصعوبة تناست تأوّهات وتلمّظات جميل بك فيما هو يغمر نفسه في لحم جوليا المستسلمة تمامًا للحبّ، ولحركات جميل العنيفة المندفعة بجوفها وهو يسندها إلى الجدار، كانا ذكرًا وأنثى اعتادا ممارسة ذلك بالسرّ مرّات كثيرة، وفي ظروف مختلفة، لا بدّ أنّهما على علاقة قديمة! هكذا فكّرت ألماظ وهي تجهد نفسها لتتعامل بعفويّة ما أمكنها مع الآنستين جوليا ووثيرة، وهما تجولان بين المحلّات الباريسيّة. بحماس جريء تشتريان ما يحلو

لهما، من فراء وحرائر   وتندبان حظّهما لأنّهما لم تُخلقا في باريس، ليرتدين ما يحلو لهن

تبدو جوليا صديقة حميمة لوثيرة ذات العينين السوداوين الواسعتين الممتلئتين بعشق خطيبها جميل بك.

جميل بك كان يكمل دراسة الحقوق في باريس، ومولعًا بالسياسة ولعب البلياردو، ومراهنة الكونت كرم شاهين، وممازحة كلّ من حوله.   لم تنجُ ألماظ من مقالبه، ووقف شعر رأسها وهو يتظاهر ذات مرّة أنّه رمى قطّتها «نيغرو» في نهر السين.

بعد مغادرة الضيفات إلى ديارهن، بين وقت وآخر تجد نفسها مرغمة على رسم ابتسامة خبيثة على شفتيها، ذلك كلّما وجّه جميل بك الحديث لها وتقرأ ارتباكه الواضح في تفسير ابتسامتها وذات مساء، اشتكى أمر ابتسامتها تلك لزوجها، وأكّد له الكونت بلامبالاة أنّ ألماظ   «تحبّ أن تبتسم بدلاً من أن تتكلّم»

* *

مرور سنتين على وجود ألماظ في باريس، لم يكن يعني لها إلّا سنتين من الضجر والكبت.

ليلاً تغلق أرقها بسدادة شمبانيا   وصباحًا، يقدّم لها قهوتها عاملون صامتون، ويشكرونها على البقشيش، فيما يضع أحدهم المعطف على كتفيها بتهذيب بالغ، ويتقدّمها عند خروجها فاتحًا لها الباب بعبارات تقليديّة تُقال لكلّ الزبائن.

واظبتْ على ارتياد مقهى «فلور» ذي المقاعد المغطّاة

بالمخمل الأحمر، من دون أن تعرف أو تكترث إلى أنّه من أقدم مقاهي سان جيرمان دوبريه، وأنّه ظهر عند بداية الجمهوريّة الثالثة في العام ١٨٨٥، وأنّ ثمّة نصبًا منحوتًا لآلهة الزهر «فلور» تدين باسمها لهذا المقهى في ركن شارع سان بينوا، والذي يقابله تمثال الفيلسوف ديدرو، وسيشهد ميلاد السرياليّة وموضة الوجوديّة.

بدت على ألماظ طباع الباريسيّات، في ذلك الوقت الذي أخذت تظهر علامات التغيّر العميق على دواخل النساء، وأخذ ينعكس على مظهرهن الخارجي.

وبدأ أدباء ذلك الوقت بوصفهنّ بـ «الغموض والتقلّب»

انتبهوا إلى حقيقة أنّ المرأة كانت على شفا عصر أنثوي جديد. بدت ملامحه القادمة من خلال تسريحة مرتفعة مخروطيّة مجعّدة بأمواج عالية تنزل على الجبين، أو ملساء ذات فِرق متوسّط، مع شعر مموّج بعض الشيء ينزل على الخدّين مع عقدة من الجدائل أدخلتها إلى الموضة راقصات الباليه الروسيّات.

والخانم اختارت التسريحة الأخيرة. تغيّرت القبّعات، فساد طراز قبّعات «الكابوت» المزيّنة بشرائط أو وردة واحدة بسيطة وكبيرة. وتلك القبّعات تحديدًا بدت مناسبة أكثر لتقاسيم الخانم الناعمة، كذلك الثياب بدت أكثر مرونة واتّساعًا وقصرًا لتتناسب مع حافلات الترام والمترو والسيّارات.

كانت تشرب شاي المساء، وتستمتع بمراقبة صبيان المقهى وهم حائرون، كيف عليهم أن يعثروا على الزبائن من زمرة طلّاب يمكثون في المقهى من الصباح وحتى المساء، وخلال ذلك

يتنقّلون من طاولة إلى أخرى. وكلّ يوم تتكرّر لعبة تحصيل الفاتورة من أولئك الزائغين.

حين رأته عبر النافذة بدا كأنّه سمع حشرجة وحشتها العالية.

البكباشي محمود، وصل إلى باريس يحمل جواز سفر مزوّرًا التصقت ألماظ به، وكأنّها انتظرته دهرًا

فَطِنَ لضعفها، ولم يصعب عليه التكهّن أنّ المرأة التي أمامه امرأةٌ مهملة من زوجها تمامًا

عرف أنّه يمكنه أخيرًا أن يقترح عليها ما خطّط له طويلاً، مذ رآها على ظهر الباخرة «أوره نوف» متباهية بريشة حريريّة بيضاء وعقد لؤلؤي تتوسّطه ألماسة ثمينة.

تحت ضياء الأستيلين الذي كانت تستعيض به باريس خلال انقطاع التيّار الكهربائي خلال الحرب، تمعّنت بملامحه وكأنّها تفتح صناديق التذكّر وتخرج أشياءها السرّيّة محاولة اقتناص كلماتها القادمة.

مقتل شقيقها فيليب خلال حادثة صيد، في الريف الفرنسي، أثّر تأثيرًا كبيرًا في نفورها من باريس، وستنتظر سنوات طويلة، لتعلم أنّه راح ضحيّة غيرة صديقه جورج الذي نافسه على غرام فتاة إنكليزيّة وريثة واحد من أثرى النبلاء الإنكليز!

البرازيل

ساو باولو

جاء في إعلان المدرسة الشرقيّة الكبرى في مدينة ساو پاولو في ٦ أيّار ١٩١٩

(هي أكبر مدرسة سوريّة داخليّة في البرازيل للصبيان والبنات، تدرّس جميع العلوم العصريّة، واللغات البرازيليّة والعربيّة والفرنسيّة والإنكليزيّة. وتعلّم فوق ذلك البيانو والأشغال اليدويّة والرسم للبنات وهي تقبل الطلّاب داخليين ونصف داخليين وخارجيين، من كلا الجنسين. وبناية المدرسة واقعة في أڤيدا باوليستا أي أجمل بقعة من مدينة ساو پاولو)

ألماظ، أنقذت نفسها من التشرّد خلال ثلاث سنوات مرّت

عليها في البرازيل بالتعليم.

في السنة الأولى علّمت البيانو في مدرسة السلام السوريّة بشارع بارون دوبرات.

كذلك أعطت حصصًا في فنون الأشغال اليدويّة للطالبات.

وبعد ذلك، انتقلت لتدريس اللغة الإفرنسيّة، في المدرسة الشرقيّة الكبرى.

خلال ذلك استطاعت أن تحافظ على مستوى معقول بمعيشتها في أوتيل دولسكي، في كورتيبيا، لصاحبه خولين كراسنوف.

أوتيل دولسكي نزلٌ نظيف مرتّب من الطبقة الأولى، وصاحبه رجل روسي لطيف كان مديرًا لأوتيلات كبيرة في أوروبا

خلال ثلاثة أشهر فقط أقنع ألماظ أنّ بشرتها السمراء تشكّل تنافرًا جذّابًا مع بشرته البيضاء

وخلال تلك المدّة، أصبحا ثنائيًّا معروفًا لدى الجاليتين الروسيّة والسوريّة. وفي عيد مولدها كلّ سنة، خلال السنوات الثلاث التي مرّت على وجودها في ساوپاولو، كان يقصد محلّ يوسف زيلخا الصايغ اليهودي ـ جوهرجي دمشقي يصنع كافّة المصاغ والحليّ السوريّة الذهبيّة على أحدث طرز في شارع سنيور دوس باسوس / عدد ٢٢٦ ريوجانيرو ـ ليشتري لها هديّة عيد ميلادها فهو كان يعرف أنّ تلك السمراء النحيلة مغرمة بالمجوهرات

خولين كراسنوف

كان يلزمها الغدر حتى تبدأ طريق النضج. والبكباشي محمود لم يوفر «الغدر» بحقّها عقب ليلة واحدة في أوتيل كراسنوف.

ذلك بعد أن دفعها لشرب كمِّيّة كبيرة من النبيذ، والمنوّم، وتركها دائخة نائمة.

رحل البكباشي محمود بعد أن أخذ كلّ ما تحمله من مصاغ ومجوهرات، وبغمرة فرحته بالغنيمة واستعجاله سقطت منه ألماسة بابور، جوار سرير ألماظ المخدّرة. فكانت الماسة أوّل شيء تقع عليه عيناها في ظهر اليوم التالي، وهي مبلّلة بعَرَقها وقيئها ومفاجأتها بماستها الغالية مرميّة على أرض الغرفة الخشبيّة.

لم يلزمها وقت أكثر من دقائق معدودة لتحدس أنّ حبيبها،

الذي لم يوفر حيلة لإقناعها بالهرب معه إلى البرازيل، قد فعل ذلك. وتذكّرت أين رأت ساعة سانتوس التي كان يحيط بها معصمه. كانت الساعة ذاتها التي فقدها الكونت على ظهر الباخرة «أوره نوف».

في تلك الليلة، فقدت في آن معًا قلادة من الطراز الفرعوني مصنوعة من البلاتينيوم والأونيكس مرصّعة بالألماس، ومعها علبة مجوهرات من الطراز ذاته، إضافة إلى مصاغات ذهبيّة حملتها معها من دمشق. ولّى البكباشي محمود بغنيمته مختفيًا من دون أثر

بعد ذلك بحوالى الشهر، كان قد نقص وزنها إلى النصف بسبب النقمة، والحبّ، والسجائر، والكحول!

كراسنوف الرجل الأشقر الخمسيني العازب، كان معجبًا بألماظ. وبهدوءٍ عمل لنيل رضاها

بداية استلّ من أرشيفه صورة وحيدة كان قد التقطها في بداية شبابه في فندق ديميتري، الفندق الذي كان يستضيف الأوروبيين القادمين إلى دمشق. كان الفندق وقتها دارًا قديمة تتوسّطها بحرة فوّارة.

الصورة التقطها له مصوّر حربي كان قد وصل إلى دمشق في أعقاب فتنة دينيّة حدثت عام ١٨٦٠ كان ذلك المصوّر الفرنسي هو ذاته «بونفيس»، الذي أصبح فيما بعد من أشهر المصوّرين الذين جابوا سوريّة.

بونفيس، خلّد نفائس وجمال قصور دمشق في صور تحتفظ بها أهمّ متاحف أميركا

لم يخطئ كراسنوف في ما اعتقده يقينه بتأثير الصورة على الخانم السمراء، وهي تتمعّن في الصورة التي كان قد وضعها بعناية داخل برواز خشبي

شعرتْ بشيء من الألفة تجاهه، وهي تسمعه يقصّ عليها رحلته إلى دمشق، وكيف رافق سيّدًا روسيًّا نبيلاً أراد زيارة دمشق لشراء الخيول.

خولين كراسنوف لازمها معظم الوقت، وعالجها من فقر الدم بزيت كبد الحوت، وفتح شهيّتها على الأكل، بعد أن قصد محلّات السمانة السوريّة، التي تتوافر فيها كلّ أجناس السمانة الشاميّة المستجلبة من وطن ألماظ إلى ساو باولو

ولأجل محبوبته السمراء، تعلّم طهو البرغل وتجفيف الفاكهة، واشترك في المجلّات التي تصدرها الجالية السوريّة، وعثر لها على وظيفة شاغرة في مدرسة السلام.

ثابرت في حكايتها مع كراسنوف وهي تتصنع البراءة، فيما بين خطوة وأخرى تخلّف وراءها الكونت بعيدًا جدًّا تتابع خولين بشغف فيما يعدّ لها وجبة الخينكالي الروسيّة مع سمك «تشاناخ» المجلوب من بحيرات القفقاز

وستظلّ دائمًا تتذكّر تلك الأحاديث الطويلة التي تجري بينهما

من وحي الحفلات التي تقيمها الجاليات المختلفة

دائمًا تعود ألماظ من حفلات الجاليات العربيّة بملاحظة واحدة: رجال يتميّزون بشوارب لا يسمحون للمهجر أن يعبث بها

كلّما عبّرت ألماظ عن حزنها، عقب الكأس الثالث من النبيذ، كان ينقر جبينها بلطف مؤكّدًا لها ذاكرة بدون ثقوب ستكون قاتلة.

مع الوقت، أصبحت الخانم السمراء على يقين أنّها كانت دائمًا بانتظاره: خولين كراسنوف.

ستتذكّر دائمًا حكمة كراسنوف الخاصّة، تلك. مثلما سيتذكّرها كلّ النقّاد الذين سيكتبون عنه فيما بعد. وكما سيُجمع غالب الذين عرفوه وأُعجبوا بما خلّفه وراءه من كتب مثيرة «تؤرشف» الكثير من تفاصيل الريف الروسي البعيد كثيرًا عن البرازيل. لكن كراسنوف جعل روسيا قريبة عندما تجرّأ على كتابة تلك الخرافات التي كان يرويها لحبيبته الدمشقيّة، المولودة في مدينة تعتنق الأساطير أكثر من أيّ شيء آخر

شجّعته ألماظ بإصرار طفل. وبالفعل كتب روايته الأولى مستلهمًا حياته الشخصيّة. وتوهّجت عيناها ببريق نادر وهي تتأمّل اسمها مكتوبًا بالروسيّة التي لا تفهم منها إلّا بضع كلمات، كان خولين يدلّلها بها همسًا تحت ملاءة السرير

روميّة خانم

كان لا بدّ أن تلتقي ألماظ بروميّة خانم، المرأة الدمشقيّة المتزوّجة من يوسف زيلخا الدمشقي اليهودي. كلتاهما تحبّان القطط. مثل معظم سيّدات دمشق. ألماظ كانت قد فقدت قطّتها «نيغرو» على ظهر الباخرة «باجي» التي عبرت على متنها الأطلسي برفقة البكباشي محمود. هذا الكائن الوديع موقّتًا والمشاكس دائمًا كما كان يقول لها الكونت عن القطط التي تشبه كلّ النساء: كائنات تتقن لغة الانحناء والتمطّي والتكوّر. وما بين لحظتين تغيّر قناعاتها وطباعها وتتحوّل من الوداعة إلى اللؤم، ومن عمق غريزتها العاصفة المتقلّبة تستلّ هدوءًا لحظيًّا خادعًا

في بيت روميّة خانم، زوجة أشهر صائغ سوري في ساو باولو، كان هنالك متّسع للقطط ولحنين ألماظ.

كانت لألماظ ملامح قطّة. قطّة مستكينة وهي تقطع شوارع

المدينة متّجهة إلى المنزل الوحيد في ساو باولو الذي كان مبنيًّا على الطراز الدمشقي تقريبًا

يطيب لها احتساء شاي المساء وسط فناء فسيح مفروش بالرخام الملوّن، تتوسّطه بحرة ماء محاطة بالزهور، وحديقة واسعة مزروعة بالحمضيّات.

روميّة خانم، أصرّت على سقف منزلها بخشب الحور، وجعلت الجدران مزدانة بالأحجار المنمّقة المنقوشة على هيئات الطيور، والمحاطة بأشكال هندسيّة مملوءة بالجصّ الملوّن.

تملأ أجواء المنزل بذلك الضوء الخاصّ، والنادر المسرّب بذكاء معماري فريد من أعلى الجدران، يتغلغل آتيًا من منافذ علويّة لتمرير النور عبر قطع زجاجيّة ملوّنة أعلاها تربّعت كتابات قرآنيّة وقصائد عربيّة. بينما كلّ نحاسيّات البيت مزيّنة بنجمة داود.

الأرضيّات مفروشة بالسجّاد والبسط المحاطة بـ «الطواطي»، تلك الدواوين الشرقيّة المزخرفة المغلّفة بالقطن الملوّن، والمخدّات الصغيرة الملبّسة بالدامسكو، والأواني النحاسيّة المرصّعة بالفضّة، وغلايين التدخين المصنوعة من الكهرمان، وفناجين قهوة مزيّنة بقواعد ذهبيّة، بينما يوجد العنبر في قعرها كي يزكّي من نكهة مشروبها

ألماظ تتمتّع بطعم شراب «الخنَوردي» أو قهوة شجر الورد، التي لا يمكن أن تصنعها إلّا أنامل دمشقيّة، من دون أن تملّ قطّ من سماع حكاية روميّة خانم الغريبة:

كانت روميّة ابنة عائلة مسلمة كبيرة وثريّة في دمشق. تعيش في قصر كبير يضمّ كلّ العائلة.

النساء يعشن في النصف المسمّى «حرملك»، الجزء المخصّص للنساء وضيفاتهنّ ووصيفاتهن.

والرجال يقضون معظم أوقاتهم في «السلاملك»، الركن المخصّص للرجال واستقبال الزوّار.

والقسم الثالث كان «الخدملك»، ركن الخدم الذي يحوي ثلاثة مطابخ وفرنًا للخبز فيوميًّا كان يتمّ ذبح الخراف والطيور كما كانت هناك قابلة مقيمة في القصر لذلك كانت خانمات وآنسات القصر شبه محرومات من مغادرة القصر حتى متعة الذهاب إلى الحمّام العمومي لم يحظين بها، لأنّ قصر العائلة كان يحتوي حمّامًا فاخرًا خاصًّا به، فاقتصر خروجهن على الذهاب إلى السوق، وحضور المناسبات التي يُدعين إليها

وفي الربيع يستطعن الخروج في السيرانات والتنزّه في الغوطة والبساتين المحيطة بدمشق.

كانوا يأتون بالحكواتي إلى القصر ليؤنسهم بقصصه في الليالي الشتويّة الطويلة. كذلك الفتيات اليهوديّات الجميلات، اللواتي كنّ يقمن بأفراح دمشق وأعراسها ويقمن بتعليم الآنسات الضرب على العود.

ويوميًّا بعد صلاة العشاء يتمّ توزيع الأكل الفائض على الفقراء، ويتمّ إغلاق القصر، وتقفل أبوابه حتى الصباح

القصر، كان مليئًا بالبكوات الشبّان ونساء متعلّمات يتحدّثن اللغات الأجنبيّة. رغم أنّ عائلة روميّة كانت قد عاشت بعض الوقت في إسطنبول، ومثل تلك العائلات أدخلت بعض العادات المنفتحة بعض الشيء كجلوس الأسرة الواحدة مع رجالها، وهنّ سافرات على موائد الطعام؛ وتبادل أطراف الحديث معهم، أو الجلوس في ساحة الدار، من دون حرج

فكان متاحًا لروميّة رؤية شبّان العائلة، ومجالستهم في بعض المناسبات.

إلّا أنّها لم تستفد من تخفيف قيود الحجاب بسبب خجلها، وطبعها الانطوائي الذي لازمها عقب وفاة والدتها

لم تقدر على الاستئثار بقلب أحد أبناء عمومتها المتخرّجين من المدرسة الملكيّة في إسطنبول، كما كانت ترغب، لتعيش شيئًا من الحرّيّة كما كانت تنعم زوجاتهم.

وكان أن لفتت انتباه ابن عمّها «ناشد بك» الذي تلقّى علومه في جامع الأزهر، وكان أكبر أولاد عمومتها

ناشد بك، أعلن رغبته بالاقتران بها، لكنّها لم تكن لتحبّه مطلقًا فكان أن وافقها أبوها الذي كان يدلّلها ويرعاها برفق عقب وفاة والدتها، التي استبدل اسمها التتري باسم اختاره لها «طرب»

«طَرَب»، كانت سريّته المفضّلة، خلّفت وراءها كمًّا هائلاً من الحقد.

حين توفي أبوها، كانت روميّة قد بلغت الخامسة والعشرين. ولخوف ذهاب ميراثها الكبير خارج العائلة، فإنّ أشقّاءها وزوجة أبيها رفضوا تزويجها لرجل غريب عن العائلة، ليضمنوا بقاء الثروة بيدهم. وذلك غالبًا ما كان يحدث مع كثير من بنات العائلات الثريّة في دمشق.

حين بلغت روميّة الثلاثين كانت قد أصبحت في عداد العوانس.

في يوم من أيّام الربيع حين يشرئبّ زهر الغوطة المحيطة بدمشق، وفي يوم عيد «الميمونة» ـ يوم يحتفل اليهود فيزورون بعضهم، ويتبادلون الطعام، لكن من دون أن يأكلوا اللحم أو اللبن، ويخرجون إلى المقابر والحقول وضفاف الأنهار، وفي ذلك الوقت أيضًا يخرج أهل دمشق في سيرانات تجمع عدّة عائلات. يمتّعون أنظارهم، وينعمون بدفء الطقس.

صَدَفَ أنّ السَيَران كان إلى مكان يطلق عليه الدمشقيّون اسم «صدر الباز» «صدر الباز» كان الشاطئ الأيمن لنهر بردى. بردى، النهر الذي يتدفّق في الربيع ممتلئًا كقلب عاشق، يحمل الثلوج الذائبة لأوردة المدينة.

كانت روميّة تملأ غالب وقتها بالاعتناء بابن شقيقها الصغير «جميل»، اختارته من بين خمسين طفلاً يضجّ بهم القصر وكانت تبالغ بتدليله، مثل مصير غيرها من الفتيات اللواتي يحرمن من الزواج!

الطفل الشقيُّ، في ذلك السيران، أصرّ على التنزّه بجوار

أخدود مفتوح على النهر، والعبث بنباتات متسلّقة على أطراف الضفّة الزلقة، وكان أن انقذف إلى مياه النهر، جاذبًا طرف ثوب عمّته الفضفاض، ووجدت نفسها تتخبّط بماء باردة، تجرفها بأقصى سرعة ممكنة. صادف ذلك تواجد بضعة شبّان قريبين من الحادثة التي شهدتها إحدى الخادمات وهرعت إلى أسيادها صارخة.

ثلاثون سنة مرّت عقب تلك الحادثة!

وظلّت روميّة تتذكّر ملمس ذراعيْ يوسف زيلخا لأوّل مرّة. لحظة حظيت فيها بلمسة ذكوريّة. ستتذكّر دائمًا شعيرات ذراعه الحاسمة التي لفّها حول خصرها وهو يسحبها إلى الضفّة.

بقلب واحد بلغا الحافّة الطينيّة للنهر

قبل يوسف، كانت تملك ذاكرة عذراء بكرًا لا تحيل إلى شيء. في أقلّ من لحظة التقط يوسف ما يمكن أن يقوله اللون العسلي الشفّاف المتواري بين رموشها، ساعدها على إعادة إزارها الأبيض الذي اعتادت الاختباء تحته إلى حدّ الاختفاء. وبكلمات قويّة نهائيّة أخبرها أنّه صائغ ذهب في الحميديّة، واسمه يوسف زيلخا، وأنّه سينتظرها ويمكن أن يصوغ لها أيّة حلية يمكن لخيال امرأة أن يتفتّق عنها

قال لها ذلك، وتوارى، قبل أن يصل أحد من أهلها الذين انشغلوا بانتشال الطفل «جميل» الذي أُنقذ حالاً فيما تُركت هي لمصيرها.. نسوها أم تناسوها!

حين ظهرت مبلّلة، مثقلة بنظرة عينيّ يوسف، وبرودة الماء، ولامبالاة أهلها المتحلّقين حول الطفل، تأكّدت أنّها تعيش بين أفراد عائلة لا تكترث بسلامتها

روميّة ابنة جارية تتريّة، لم يحبّها أحد، فقط كان المهمّ ميراثها

لم يسألها أحد كيف خرجت من النهر إنّما نظرات حانقة ومؤنّبة من الجميع، وزوجة أبيها لم توفر من سمّ لسانها، وهي تكيل لها الشتائم المرّة، وتحمّلها مسؤوليّة سقوط حفيدها الغالي، في مياه النهر الباردة. وروميّة تنتشل نفسها من برودة نهر بردى، وتشعر لأوّل مرّة بملمس العشب النديّ تحت باطن قدميها، بعد أن فقدت «قبقابها» المنزّل بالصدف بمياه النهر، وتكبت نقمتها على تلك القباقيب الخشبيّة، التي اخترعها رجل شرقي، ماكر خبيث غيور لتكون الحذاء الوحيد الذي عرفته كلّ نساء دمشق مسلمات ومسيحيّات ويهوديّات. لم يكن حذاءً، كان عقوبة.

كان قيدًا ذكيًا مصنوعًا من خشب الجوز المنزّل بالصدف والمجوهرات.

بالكاد يمكن للمرأة أن تتوازن بمشيتها خلال المرّات النادرة التي يُسمح لها فيها بمغادرة البيت.

حذاء صُنع بطريقة مدروسة تضمن صعوبة المشي، واستحالة الخطى السريعة. حذاء طالما أثار دهشة كلّ من زار دمشق.

روميّة، عقب تلك الحادثة، لم تنتظر طويلاً حتى قصدت محلّ منقذها يوسف الصايغ، مع قهرمانتها العجوز.

يومها، دلفت إليه موشّحة بالتوربان الأبيض والمئزر الأسود، لكنّه لم يخطئها

نهض يرحّب بها، بعينين لامعتين، وأشار لها أن تجلس، وصرف صبيًّا يعمل معه.

قال لها بلهجة تخلو من الشكّ: «أهلاً روميّة خانم»، عندها رفعت المنديل الأبيض الذي كانت تسبله على وجهها الأبيض الشاحب، الذي ورثته عن أمّها التتريّة، الجارية الفاتنة التي تلقّاها والدها كهديّة ثمينة من أميرلاي تركي.

جلست روميّة وابتسمت ليوسف كما لم تفعل في حياتها ولم تسأله قطّ كيف عرف اسمها

يوسف الصايغ، اليهوديّ الأرمل الذي ماتت زوجته بوباء الطاعون، عقب شهرين من زواجهما كان قد قرّر حمل ثروته الصغيرة، حصّته من محلّ الذهب الذي يشاركه فيه عمّان له، إلى البرازيل.

هناك ينتظره شقيقه الأكبر، مع وعود أكيدة بظروف عمل جيّدة تضمن له حياة كريمة.

كان يفكّر في ذلك، من دون أن يكون قد اتّخذ قراره النهائي، إلى أن رمى نفسه بالنهر وراء سيّدة ملفّعة بالأسود، أخرجها، وخرقت قلبه بعينين بريئتين. وسرعان ما عرف أنّه وقع بغرام فتاة مسلمة. وهذا المستحيل بعينه في مدينة سكّانها عرب مع أقلّيّات مستعربة من الأكراد ومن الأتراك والجراكسة والألبان والأرمن . ثلاثمائة ألف منهم مسلمون. المسيحيّون يشكّلون

سدس المجموع. منهم الأرثوذكسي والكاثوليكي والسرياني والماروني والإنجيلي، مع خمسة آلاف من اليهود.

لم يكن بوسعها أن تحمل معها أكثر من المصاغ الذي ورثته عن أمّها، مع أحلامها عن العالم البعيد، الذي ينتظرها وراء البحار كما تخيّلته بناء على وصف يوسف.

تظاهرت أنّها تقصد السوق، كالعادة. ولأنّها في عداد العانس، كانت زوجة أبيها تسمح لها بالذهاب بمرافقة القهرمانة المسنّة.

كانت تلك آخر مرّة تخرج فيها روميّة من القصر

وكان سهلاً مغافلة قهرمانتها في زحمة سوقٍ، كلّ النساء فيه يلبسن الثياب ذاتها، وبلونين: أسود وأبيض.

حين لاقاها يوسف كان من المفترض أنّ ذلك اليوم يوم سفرهما، ومغادرتهما إلى بيروت.

لكنَّ خلافًا حادًّا دبّ بينه وبين عمّيه، بشأن حصّته من المحلّ، حال دون سفرهما بالوقت المحدّد. فكان أن قادها إلى حيّ اليهود، لتمكث بعض الوقت بأمان، من دون أن يخطر لأحد من أهلها البحث في ذلك الحيّ. ووجدت روميّة نفسها في عهدة سيّدة عجوز، في منزل صغير مخبّأ جيّدًا في حارات اليهود الضيّقة بأزقّتها الملتوية، قد لا يتجاوز عرضها المتر الواحد. أبواب صغيرة قليلة الارتفاع لا يكاد المرء يدخلها إلّا منحنيًا، تؤدّي إلى مساحات كبيرة ودهاليز غامضة.

طالت مدّة الوصول إلى تسوية مع عمّيه، أكثر ممّا هو متوقّع. وبعد مرور شهرين، وفي يوم سبت، يوم عطلة اليهود. اليوم الذي لا يوقدون فيه النار.

كانت تأتي بضع نساء ريفيّات يبعن النار للرجال لأجل أراكيلهم.

روميّة لم تخطئ وجه «زهوة» المرأة التي تعمل كحّالة للعيون وممسّدة ونقّاشة بالحنّاء ومزيّنة عرائس. معظم نساء عائلات دمشق الأكابر كنّ يعرفنها، حَدَست في الوقت المناسب أنّ «زهوة» كانت مكلّفة بمهمّة التفتيش عنها وتيقّنت روميّة أنّ زوجة أبيها تنوي العثور عليها مهما كلّف الثمن.

روميّة رأت زهوة من نافذة المطبخ، وهي تطرق باب العجوز، تعرض عليها شراء النار. وقد تنكّرت بزيٍّ ريفي مكوّن من أسمال بالية، واضطرّت لكشف وجهها لأنّ تلك النسوة لم يكنّ يغطّين وجوههن بالعادة.

وفي تلك الليلة بالذات، غادرت مع يوسف على ظهر بغلين، ليقوما برحلة شاقّة إلى بيروت، بعد أن خشيا من أن يكون أشقّاؤها قد وزّعوا جواسيسهم في وكالات السفريّات. روميّة لم تنس أيّ تفصيل صغير من رحلتها مع يوسف إلى بيروت. وظلّت تتذكّر تلك الأيّام كألذّ أيّام حياتها، تقول لألماظ: «عليكِ أن تجرّبي النوم بالعراء بين ذراعيْ رجل تعشقينه»

فتهمس «دونيا لوليا» لألماظ وروميّة قائلة: «ذلك يذكّرني بذراعيْ قومندان فرنسي في قلعة محاطة بالبحر».

دونيا لوليا

كان اسمها لوليّة في سوريّة، وفي ساو پاولو أصبح لولْيَا

خلال المجاعة التي اجتاحت الإمبراطوريّة العثمانيّة خلال الحرب الكبرى، بيعت لوليّة الفتاة الريفيّة، البالغة الحسن، إلى قومندان فرنسي يعاني من الوحدة في جزيرة صغيرة في البحر المتوسّط.

ولم تتأكّد لوليّة قطّ، إذا ما كانت تلك الجزيرة هي جزيرة «أرواد»

كانت تقريبًا الأنثى الوحيدة على تلك الجزيرة، فيما خلا بعض الخادمات العجائز اللواتي كنّ يتولّين أمور التنظيف والغسل والطبخ في قلعة تعسكر فيها كتيبة من الجند!

عقب مرور سنتين من خدمة لوليّة في فراش القومندان تمّت

ترقيته، وقرّر مكافأتها بمبلغ من المال، وإرجاعها إلى أهلها لكن لوليّة، خلال السنتين، كانت تسمع وتقرأ عن أميركا اللاتينيّة أعاجيب القصص، فطلبت من القومندان مساعدتها للوصول إلى تلك الأرض.

رفضت أن يحصل أحد من أهلها على قرش واحد من مكافأتها وكان لها ما أرادت.

حينما غادرت ميناء طرابلس الشام على متن «جوليو سيزار»، الباخرة التي حفظت لوليّة اسمها وكامل الإعلان المرافق في قصاصة من إحدى المجلّات التي كانت تصل بأوقات متقطّعة إلى القلعة. فلم تنس قطّ الإعلان الذي قرأته مرّات كثيرة وتمعّنت بالكلمات وهي تحلم.

(نغيغزبوني جنرالي إيتاليا أي (الملاحة العامّة الإيطاليّة)، جوليو سيزار باخرة عظيمة سريعة محمولها ٢٧ ألف طنّ تسير بين البرازيل وأوروبا وميعاد سفرها في ١٠ نيسان و٢٧ أيّار ـ إذا شاء المسافرون الراحة والسرعة فليطلبوا البواخر التالية التي تسير سيرًا قانونيًّا بين البرازيل وأوروبا، وهي: البرنساسا مغالدا، الري فكتوريو، دوقا دي أوستيا، دوقا دل ابروزي، أوروبا، إنديانا، نابولي، بليرمو وهذه الشركة مضى على خدماتها قرن من الزمان. أثبتت الراحة والأمان للمسافرين، وهذه الشركة تقطع أوراق السفر في سائر الشركات ذهابًا وإيابًا رأسًا من سانطس إلى بيروت ويافا وطرابلس الشام وبيريوس وأزمير وسلونيك والآستانة والإسكندريّة. كلّ أربعة عشر يومًا يوجد باخرة منها تسافر من

سوريا إلى إيطاليا ومن ايطاليا إلى سوريا، وكلّ أسبوع يوجد باخرة من إيطاليا إلى أميركا الجنوبيّة ومن أميركا الجنوبيّة إلى إيطاليا).

لوليّة، حالما وطأت أرض مدينة ساو باولو، استثمرت كلّ جرأتها الخالية من الحياء الذي جرّدها منه القومندان خلال الليالي الطويلة في القلعة الموحشة لمدّة سنتين.

أذهلت رجال ساو باولو وهي تهز أردافها على وقع الطبلة الصغيرة، التي كانت بين يديْ صبيّ لقيط، لا يتجاوز الثانية عشرة من عمره. رأته لوليّة، على ظهر الباخرة «خوليو سيزار»، التي أقلّتها إلى البرازيل. كان يحاول كسب بعض الأكل من خلال الدقّ على الشيء الوحيد الذي كان يملكه «الطبلة»

وقتها لم يكن الرقص الشرقي معروفًا في تلك المدينة اللاتينيّة.

وأصبحت لولْيَا، كما أسمت نفسها، حديث الناس وهي تتمايل ببدلة رقص من الخرز الأحمر والذهبي تكشف عن ردفين ممتلئين تؤرجحهما متلذّذة بما تخلّفه من حركات مغوية لفتت أنظار عُمدة بلديّة المدينة الذي احتكر مواهبها لنفسه. وانتقلت لتعيش في حمايته لتظلّ محظيّته عدّة سنوات انتهت بموته.

وبفضل دونيا لوليا، استطاع عدد لا بأس به من المهاجرين العرب، الحصول على وظائف مهمّة وامتيازات إقامة مصانع وموافقات رسميّة لافتتاح المطاعم

خلال كلّ ذلك، كانت عمولتها محفوظة، ممّا جعلها سيّدة أعمال وشريكة في أكثر من فندق وعدّة مطاعم.

ألماظ التي تعرّفت على لوليّة عند روميّة خانم، جمعتهما حكاية طريفة جعلتهما صديقتين حتى النهاية: كلاهما غريمتهما كانت «نادجا»

ألماظ، لم تكن تعلم أنّ نادجا كانت في ذلك الوقت أيضًا في ساو پاولو

نادجا، تخطّط لإيقاع العمدة المغرم بالجميلات، وتبرع بالظهور في الحفلات الراقية التي تضمّ عليّة القوم، قبل أن تعمد لوليا لاستعادة العمدة إلى أحضانها، بعد أن هدّدت نادجا بتلفيق تهمة لها وزجّها بالسجن، فموقع لوليا يسمح لها بتنفيذ أسوأ الخطط الشرّيرة التي يمكن أن يتفتّق عنها ذهن امرأة تريد إزاحة امرأة أخرى من طريقها

ففي لحظة لقاء مصادفة تكتشف الفتاتان، نادجا ولوليا، أنّهما تعرفان بعضهما جيّدًا

يعود ذلك إلى الوقت الذي كانتا كلاهما في ميتم سيّدات الدياكونيز البروسيّات البروتستانتيّات، أو فيما كان يعرف في بيروت بالميتم الألماني.

لم يكن خفيًّا على الراهبات جمال الفتاتين نادجا ولوليّة، اللتين تصادقتا لتتمكّنا من مغافلة الراهبات، تحديدًا في يومي الجمعة والأحد، والتنزُّه مثل العائلات البيروتيّة على الطريق نحو

الشاطئ الصخري لمنطقة الروشة.

ذلك الجزء من الساحل من عين المريسة إلى الروشة كان منتزه نهاريْ الجمعة والأحد.

عرفت لوليّة أنّ نادجا ابنة لسيّدة أرمنيّة، وضعتها في فندق دوتشرهوف الألماني في شارع شاتوبريان، وجاءها المخاض في الحانة التي تقدّم البيرة الباڤاريّة.

عقب ذلك، سلّمتها للميتم الألماني، مدّعية أنّ الطفلة ابنة شقيقتها التي قضت أثناء الولادة. وكانت آخر مرّة رأتها فيها لم يتجاوز عمرها الخمس سنوات. كانت نادجا بالكاد تتذكّر ملامح وجهها، وتقضي أوقاتًا طويلة مؤرّقة تتساءل فيها عن الأسباب التي دعت تلك السيّدة إلى التخلّي عنها

عندما حدثت المجاعة، واجتاحت كلّ أنحاء سوريّة، جاء عمّ لوليّة واستردّ الفتاة مدّعيًا أنّه يخشى عليها من الموت جوعًا

كانت لوليّة قد بلغت الرابعة عشرة من عمرها، وقد تربّت على الدين المسيحي على أيدي الراهبات. ولم يخطر لها أنّها تنتمي لأسرة مسلمة، إلّا عندما رأت عمّها الذي سربلها فورًا بقماش أسود فضفاض قبيح، وأجبرها على المشي وراءه متعثرة بفائض الإزار الذي ترتديه.

أخذها إلى فندق رخيص، وهناك سلّمها لامرأة عجوز أغلقت عليها الباب، وتركت العمّ في الخارج، كأنّه ينتظر خبرًا مهمًّا

العجوز أزاحت الستائر عن النافذة العريضة لتصبح الغرفة

مضاءة بالكامل، ونزعت عن الفتاة كلّ ثيابها وجعلتها تضّجع على ظهرها، وتباعد بين ساقيها، حيث دسّت العجوز يدها بين فخذي الفتاة المذعورة، وأخفضت رأسها ورأت كيف أنّ عينيها المزرورتين تفحّصتا بدقّة ما بين فخذيها وبعد أقلّ من دقيقة، هزّت برأسها كأنّها توافق على شيء ما، ثم قلبتها على بطنها، وضربت بكلا كفّيها على فلقتي مؤخّرة لوليّة الممتلئة والنافرة، وتمتمت كأنّها تحدّث نفسها «حلو تركت العجوز لوليّة تتدثر بالإزار، وسط دموعها وأسئلة متلاحقة لم تلقِ لها جوابًا كلّ ما تذكره أنّ العجوز وضعت بضع ليرات ذهبيّة في منديل، ودسّتها في جيب العمّ الذي لم ينظر صوب الفتاة أبدًا؛ وغادرهما مبتهجًا بما جناه من مال لقاء الفتاة.

وقتًا عصيبًا قضته لوليّة وهي تتحزّر حول مصيرها، فيما العجوز تجرجرها في شوارع بيروت ليلاً، حتى وصلتا الميناء. وجدت نفسها برفقة العجوز ذاتها، على متن قارب خشبي صغير مرّت ليلة عاصفة، توقّعت لوليّة أنّها لن تنجو منها، وهي التي لا تعرف السباحة، ولم تركب البحر قبلاً، وصلتا مع طلوع الفجر، وقاع المركب مليء بقيء لوليّة التي ظنّت أنّها ستموت خلال تلك الرحلة.

فجرًا انتهت المحنة، ووصلتا جزيرة صخريّة صغيرة تتوسّطها قلعة عالية الأسوار هناك، استقبلهما جنديّان تكلّما مع العجوز بضع كلمات ترحيبيّة، بالفرنسيّة، دون أن يزيحا بصرهما عن الفتاة التي تفوح منها رائحة القيء، ورائحة التعرّق التي زادت مع المسافة التي قطعتها مع العجوز مشيًا على الأقدام بين الشاطئ

والقلعة، حيث صخور وأشواك وممرّات وعرة مليئة بالحيّات والسحالي.

بعد ذلك كان عليها أن تتكبّد عناء طلوع السلالم الحجريّة الزلقة في بعض أجزائها. كانت تمشي وراء العجوز من دون مقاومة تُذكر من جانبها، بعد أن توقّعت أنّه جيء بها إلى ذلك المكان لتكون امرأة عدد من الجنود.

كانت قد سمعت الكثير من تلك الحكايا في سنوات الجوع الرهيبة خلال الحرب الكبرى الأولى. كثير من العائلات باعت بناتها بتلك الطريقة، وعندما تظهر بوادر الحَبَل بعد عدّة شهور من الاستعمال، يقوم الجنود بإغراقها في البحر.

كانت تفكّر بذلك فيما الجنديّان يكادان يلتهمان جسدها بنظراتهما المخدّرة.

في حجرة معتمة رطبة، يدخلها الضوء من جهة واحدة، أجبرتها العجوز على الاستحمام بماء ساخن ورغوة معطّرة وفيرة غمرت فيها جسدها فور وصولهما.

بعد ذلك أطعمتها فطورًا مكوّنًا من الخبز والعسل والفاكهة، ثم ألبستها ثوبًا أوروبيًّا بدا كأنّه ملبوس، لكنّه كان نظيفًا تفوح منه رائحة الصابون، يكشف الثوب عن جزء كبير من صدرها. سحبتها العجوز من يدها وجرّتها وراءها لتصعد المزيد من الأدراج الحجريّة ثم تطرق بابًا خشبيًّا ضخمًا مزخرفًا بنقوش نافرة، ومهترئًا تفوح منه رائحة عفونة سبّبتها رطوبة البحر الذي يحيط بالمكان.

كان القومندان الأشقر، بالكاد يستفيق، متمدّدًا في فراشه شبه عار.

فتح عينيه متعجّبًا من الفتاة الواقفة أمامه، فيما العجوز تترقّب ملامحه بخبث! صاح بضع كلمات بالفرنسيّة، التي كانت تفهمها لوليّة بعض الشيء، وفهمت أنّ تلك العجوز اسمها «مِرتا» والضابط الوسيم، الذي ينظر إليها بنهم، هو القومندان الذي عُرِف لاحقًا في الشرق الأوسط كمفوّض سامٍ وزير نساء شهير

كان وقتها معزولاً في تلك القلعة، يدير شبكة من الجواسيس الذين يعملون لصالح فرنسا في كلّ أنحاء سوريّة.

القومندان الأشقر لم يوفر وقتًا دفع بالعجوز إلى الخروج تمضمض بجرعة نبيذ، وبتشهٍّ فظيع سحب لوليّة إلى فراشه.

بعد أربعة شهور فقط، بدأت لوليّة القيام بتلك الرحلات الرهيبة ليلاً مع العجوز مرتا على ظهر قارب يجذف فيه رجلان إلى بيروت، لتقوم لوليّة بعمليّة إجهاض.

القومندان لم يكن مستعدًّا أبدًا لأخذ الاحتياطات في هذا الشأن. عقب عدّة عمليّات في عيادة الدكتور نيقولاي في بيروت، انقطع طمثها ولم تعد تحبل. وذلك كان مناسبًا أكثر للقومندان.

لوليّة قابلت صديقتها القديمة نادجا، في عيادة الطبيب نيقولاي، وذلك في ثاني رحلة إجهاض لها؛ وكانت نادجا هناك للسبب نفسه. لكن تلك كانت عمليّتها الأولى، فقد نزفت كثيرًا من الدم ظنّ الطبيب أنّها لن تنجو

يومها أخبرتها أنّها هربت من الدير لترافق شابًّا من حيّ السراسقة، وهو أفخر حيّ في بيروت يضمّ عليّة القوم وأكثرهم ثراءً وأوسعهم نفوذًا

نادجا ظنّت أنّه مغرم بها، حين أخذها إلى عزبته الكائنة غربي بيروت. وهناك قضت شهرًا بكامله تعاني من فسق فارس أحلامها الذي سلّمها أحيانًا لأصدقائه.

حين علم بحملها أرسلها مع خادمة حبشيّة عجوز إلى عند الطبيب نيقولاي.

رغم أنّ نادجا كانت طريحة الفراش، لكن ذلك لم يمنعها من العبث بثوب العجوز مرتا الفضفاض، وأن تختلس النقود الذهبيّة التي كانت تحشرها جيّدًا في أحد جيوبها، لتعطي الطبيب أجره، وتدفع ثمن بعض المشتريات الضروريّة التي أوصاها عليها القومندان.

حينما فقدت العجوز ليراتها الذهبيّة، ونبشت كلّ أنحاء العيادة ولم تعثر عليها، قرّرت تفتيش نادجا رغم اعتراض لوليّة وبالفعل عثرت على الصرّة الصغيرة التي تحوي النقود بين ثنايا ثياب نادجا يومها اعتذرت وسط سيل من الدموع، وبرّرت أنّها لا تملك ما تأكل به لدى خروجها من العيادة!

حاولت لوليّة أن تحصل على قطعة نقديّة من مرتا لتعطيها لنادجا التي استطاعت استدرار شفقة صديقتها القديمة لكن مرتا رفضت ذلك بقوّة مبرّرة أنّ نادجا إنسانة سيّئة واللصوص لا يستحقّون الشفقة.

في ساو باولو، في الوقت الذي أصبحت لوليا صديقة لألماظ وروميّة خانم كانت لوليّة قد أصبحت تعرف بدونيا لوليا تمتلك أكبر وأشهر مطبعة فنِّيّة سوريّة في شارع پاولا سوزا مطبعة مشهورة بإتقان طبعها بالحروف، وعلى الحجر بكافّة الألوان المختلفة والطبع النافر الجميل، بالإضافة إلى فابريكة كرافاتات في شارع فلورنسيو دي أبراو، حيث يمكن للزبائن الحصول على كرافاتات جميلة الألوان من أفخر الحرير الفرنساوي والإيطالي

كانت دونيا لوليا تستفز الجالية السوريّة، عبر مقولات شرقيّة، كأن تقول في أحد الإعلانات

(قال المثل الإنسان الذي بدون أرض له هو «نصف إنسان»، فاعملوا لكم ولأولادكم مستقبلاً حسنًا وسعيدًا، وهذا يكون بشراء أرض بالتقسيط، في حيّ إندياتابوليس الجميل «ڤيلّا لوليا» ساو باولو، حيث هناك مستقبل المدينة، المخابرة مع المدير رشيد الصيّاد).

ورشيد كان بذاته الصبيَّ الذي رافقها في بدايتها مع طبلته التي يضبط إيقاعها مع خصر ومؤخّرة لوليا حين بلغ التاسعة عشرة من عمره كان الشخص الوحيد الذي تثق لوليا في أمانته.

وحين شاركت ألماظ لوليا في محلّ أقمشة، تركت كتابة الإعلان للوليا صاحبة الأفكار الغريبة في هذا الشأن.

(إذا قامت البولشفيّة بمبادئها والفوضويّة بتعليماتها وتحرّكت الثورات الفكريّة وهاج في الأمّة العصيان والتمرّد، فاعلم أنّ الناس يطالبون بحقوق مهضومة، فإذا ذهبت إلى التسوّق وتريد أن

تحفظ مالك في جيبك فإلى محلّات دونيا لوليا المعروفة بإنصافها للشاري من اعتداء البائع ونحافظ على المهاودة التامّة مع جودة الصنف وحسن المعاملة)، أو أن تكتب إعلانًا بطريقة أخرى:

(إذا وقفت في ساحة براما أنطونيو بين الساعة الخامسة والسادسة مساء يمرّ أمامك ألوف من الخلق وفي كلّ مئة من المارّة يسترعي نظرك حسن بزّة عشرة هؤلاء يحملون على جسومهم بطاقة تعارفهم قد لا تعرف أسماءهم بالمعموديّة لكنّك تسمّيهم أرباب الذوق. خمسة من هؤلاء دخلوا خيّاطهم في شارع جوون بريكولا نومرو ١٠ يعني محلّ دونيا لوليا لاستيراد الأجواخ الإنكليزيّة ولوازم الخيّاطين)

ولا تنسى لوليا أن تقول بصوت عال في احتفالات الجالية السوريّة: «إنّ الفلس الذي يصرفه كلّ سوري اليوم سيتحوّل إلى عافية ودم حارّ يجري في عروق ذرّيّته. والمدرسة العصريّة السوريّة كانت تقبل سنويًا عشرين تلميذًا عربيًّا مجّانًا مع تقديم الكتب اللازمة من تبرّعات دونيا لوليا»

* *

النسّاجون كانوا كثرًا في الشام. لكن ساو پاولو تجهل نفائس دمشق. فقط، قرأوا عنها في ألف ليلة وليلة، وخرافات الشرق التي لم تفقد يومًا سحرها اجتمعت جهود لوليّة وروميّة وألماظ بتمويل خاصّ من الخواجة أنطون، عميد الجالية السوريّة في ساو پاولو، ليتمّ جلب حمولة من أقمشة دمشق النفيسة. وبالفعل، بعد عدّة أشهر، امتلأت العيون ببريق نادر. فيما الأقمشة تُعرض في

سوق خيري، تنظّمه سيّدات ثريّات من الجالية في النادي السوري.

يومها، لمست النساء أقمشة مختلفة بأسماء تحمل غموض الشرق: البروكار، الألاجا، الدامسكو. وفغرن أفواههنّ وهنّ يسمعن أسماء تلك النقشات المنسوجة على الحرير، العاشق والمعشوق، السبع ملوك، السبع بحور، الخشخاش.

ثمّة قماشة بيضاء منزلة بخيوط الذهب منقوشة بالخيول والسيوف، فتنت الحضور. الدون أنطون، بدا كما لو أنّه انتظر دهرًا طويلاً ليحكي حكاية رجل أسود تقابله فتاة بيضاء. نجح الحائك بصبره ودقّته أن يُظهر ملامح التعالي بشخصها المنقوش على قماشة الدامسكو

حكى لهم كيف أنّ فارسًا، اسمه عنترة، وضع كلّ حياته على الطرق التي وطأتها عبلة، يضرب بسيفه، يفتك بأعداء قبيلته، يطير على ظهر حصانه الأدهم، لعلّه يصل إلى عينيها العمياوين عنه، لكنّه لا يصل. يظلّ مسمّرًا على الدامسكو وكلّ مجده، أنّه بلغ تلك اللحظة التي يجرؤ فيها المرء، وبسبب الحبّ وحده، أن يتغلغل بين أضلاع الجنون. تنبعث بين يديه كلّ الأسلحة التي عرفها العرب، ضرب بها حيًّا وميتًا فيما كلّ الصحراء المنسوجة حوله تقول له: لن تحبّك عبلة. وستأبى عليك أن تعيد سيفك إلى غمده حتى تغدو في تراب الأبد.

في تلك السهرة، بيعت أقمشة الدامسكو المزخرفة بظباء أعناقها محنيّة بطريقة هندسيّة، ظباء من العناد والجنون، بحيث لا

تريد أن تسمع أحدًا، فقط تريد أن ترحل إلى حيث تحلم. كائنات مشغولة من خيوط حرير قطع حوالى ثمانية آلاف كيلومترًا من الصحاري والجبال والوديان ليصل دمشق قبل عقود كثيرة.

*

لم تكن ألماظ تتذكّر الكونت إلّا لدى قراءتها لرسائل خادمتها «لور»

لور لم تكن تعرف الكتابة قطّ. لكنّها كانت تملي ما تريد البوح فيه على عشيقها أحمدو الإفريقي الذي كان يخدم في أحد منازل الكونتات العرب.

منها كانت تعرف كلّ تحرّكات زوجها آخرها أنّه ذهب في رحلة برفقة أميرة ألبانيّة إلى بلادها، وقضى هناك ما يقارب السنتين.

والسيدة «تريس»، ماتت إثر تناولها السمّ، بعد أن راهنت بكلّ ما تملك على الرقم «ثلاثة عشر»، الذي تثق فيه ثقة مطلقة. فخسرت كلّ ما تملك. آخر معطف تملكه من فراء الثعالب، خسرته على طاولة الروليت أُصيبت بصدمة بعد فرار «نادجا» إلى جهة غير معلومة.

قبيل موتها بقليل، اعترفت وهي ثملة، أنّ نادجا ابنة لها وليست فتاة تبنّتها من الميتم كما كانت تدّعي.

الجميع تأكّد من إشاعات قديمة كانت تفيد أنّ نادجا ثمرة علاقة مع سياسي فرنسي معروف، وحين واظبت زوڤينار على قول

ذلك في كلّ سهرة كانت تحلّ فيها نصف واعية.

أرسل ذلك السياسي، الذي ذكرت على الملأ أنّه والد نادجا، رجلين ضخمين أخذاها في رحلة. وُجِدت صباح اليوم التالي على ضفّة السين بوجه مليء بالكدمات وبثياب ممزّقة.

ألماظ، وعلى مدى سنتين، كانت تنصح لور بالهرب مع حبيبها أحمدو إلى ساو پاولو، حيث يمكنهما البدء من جديد، وتأسيس العائلة التي يحلمان فيها

ذات يوم، حين كانت ألماظ عائدة من سهرة أقامتها الجالية السوريّة على شرف افتتاح معمل كبير لصنع كافّة أشكال البرانيط، يملكه واحد من أبناء الجالية وتحت الضوء الخافت لشارع «بريكاديروا طوبياس»، لمحت من الخلف مؤخّرة ممتلئة محشوّة بثوب من الموسلين الأبيض الرخيص. لم تخطئ، فقد كانت تلك مؤخّرة «لور» الشهيرة التي لطالما تمنت لو حصلت على واحدة مثلها، والتي يعشقها الكونت لأجلها

أخيرًا، استفاد أحمدو من خفّة الحركة التي تعلّمها من السنوات التي قضاها محاربًا في جيش ساموري توري، الذي كان أشهر من قاوم نفوذ الفرنسيين في غرب أفريقيا الحروق القديمة لم تزل واضحة آثارها على يديه، رغم مرور أكثر من عشرين سنة على ذلك اليوم. عندما كان أحمدو، في الثامنة عشرة من عمره، وهو يخلع على عجل مع أولاد عمومته سقوف البيوت المصنوعة من أغصان النخيل، لتحول من دون سرعة انتشار حرائق مدافع الفرنسيين. بعد أن نجحوا بفتح ثغرة في أسوار الحصن، حيث

تحصّن جيش ساموري توري، بعد قصف دام ثماني ساعات بمدافع جبليّة من عيار ٨٠ ميلّمترًا

يومها قاوموهم مقاومة ضارية، وقابلوا قصفهم بنيران من بنادقهم بدائيّة الصنع. ثم أخذوا يقاتلونهم من منزل إلى منزل، دفاعًا عن أرضهم. ورأى أحمدو ذكور عائلته الكبيرة يموتون وسلاحهم في أيديهم.

بعد ذلك، انضمّ إلى جناح الفرسان في جيش ساموري توري، الذي أعاد تسليحه بأسلحة أوروبيّة حديثة.

كان أحمدو واحدًا من القلائل الذين اعتمد عليهم ساموري توري في إتمام صفقاتهم السرِّيّة لشراء أسلحة من سيراليون، وتمريرها بأمان للجيش. وأشرف أحمدو على عمليّة استبدال بنادق شاسبوت، التي كانت خراطيشها الكبيرة تتلف سريعًا من الرطوبة، ببنادق من طراز غراس ذات خراطيش أخفّ، وبنادق من طراز كروباتشك سريعة الطلقات.

وعمل على تدريب الحدّادين المحلّيين في صنع بنادق مماثلة. بكفاءة ظلّ جيش ساموري توري يقاتل بها إلى أن هُزم في عام ١٨٩٨ من دون أن يحصل على المدفعيّة التي كان يحلم بها!

وبعدها نفي الإمبراطور المهزوم إلى الغابون، وانتهت الأحلام ببناء إمبراطوريّة نظيفة لا يتدخّل بها الفرنسيّون الذين لم ينسوا التقاط صورة لعدوّهم الأسير ساموري توري، وقد أسره الكابتن غورو. وأحمدو لم يتخلّ قطّ عن تلك الصورة: يقول «حتى لا نتناسى الهزائم» وعندما خرج من السجن عمل في منزل

كونت مغربيّ في باريس، حيث التقى لور الباكية على إثر منافسة «مؤخّرات» زجّ بها الكونت لتمثّله وفاز بقوّة. أحمدو جلب لها عصير الليمون، وأخبرها أنّ كلّ الرجال أمام «مؤخّرات» النساء على مبدأ واحد. وظلّت تلتقيه في أيّام العطل إلى أن قرّرا مغادرة باريس ليعيشا سويًّا في أيّ بقعة على وجه الأرض لور اختارت الالتحاق بسيّدتها الخانم السمراء النبيلة الطباع.

* * *

سنترال أوتيل لأصحابه غالوتشي وميليوري

شارع ليبرو بادارو عدد ٨ ــ تليفون سنترال ٢٢٦٩ ــ ساو باولو

(تعلن الجالية السوريّة الكريمة أنّنا قد ابتعنا هذا الأوتيل وأدخلنا عليه تحسينات عديدة، بحيث يجد الزائرون والمعتادون على النزول فيه كلّ أسباب الراحة والرفاهيّة أمّا المأكولات فهي عربيّة وإفرنجيّة وتصنع على أيدي طهاة ماهرين، فليشرّفنا السوريّون يجدون في نزلنا ما يسرّهم سواء كان من الطعام أو المشروبات أو الفرش أو حسن المعاملة والنظافة)

بخطّ يدها كتبت ألماظ ذلك الإعلان، وأرسلته إلى مجلّة الجالية السوريّة «القلم الحديدي» لصاحبها جورج الحدّاد، بعد أن رهنت ماستها، ودفعت ما جعلها شريكة في سنترال أوتيل مع عدد

من رجال الأعمال السوريين. كذلك شاركت في أحسن وأفضل معمل في البرازيل لصنع كافّة أجناس البرانيط الذي ملكته الجالية السوريّة. وهناك عثرت على عمل لكلّ من لور وأحمدو.

أعطت طلبيّات للتجّار الجدد القادمين من الوطن، وعملوا في تجارة التجوال في ولايات الجنوب، مثل بارانا، وسانتا كاترينا، وريو كراندي. وفي وست دي ميناس السنيور جوزابي إبيرا داس يلفا وفي خطّ موجيانا وقسم من ولاية ميناس السنيور جواكيم: (جرّبوا أيّها السوريّون برانيط معملنا واذكرونا بالخير أمّا عنواننا التلغرافي فهو (ita minas))

* * *

وثمّة تلغراف من ريودي جانيرو (ورد على هذه الحاضرة تلغراف من ريودي جانيرو يفيد بأنّ الخواجة رفعت سرياني، والبيك محمود أوغلو كوتاي نقلا محلّهما التجاري الكائن في شارع الفندكا رقم ٣٢٧ إلى رقم ٣١٩ من الشارع ذاته)

لم يفد التلغراف المنشور في الصحافة السوريّة في ساو باولو بأكثر من أنّ البكباشي زيّف لقب البيك، أو قد يكون اشتراه من عميد الجالية التركيّة، من ثمن المجوهرات التي اختلسها من ألماظ من دون تردّد أو رحمة وتزوّج من نادجا، وافتتح لها محلًّا لبيع الكابات، والأزياء النسائيّة.

عندما بكت ألماظ، بين ذراعيْ خولين كراسنوف. قال لها واحدة من تلك العبارات التي لا تُنسى «أحيانًا تحدث حياتنا

كما بعض المسرحيّات الإغريقيّة تتعقّد بشكل لا يحلّها فيه إلّا تدخّل أحد الآلهة»

سيحافظ الماس على عاداته وتقاليده، كما قال يومًا خولين لألماظ، وهو يتأمّل ألماسة جدّتها «بابور»: «يتكوّن خلال اعتباطيّة الزلازل واستبداديّة البراكين ومقاومة الامتثال والخضوع، احتجاج الأعماق الغاضب، العنيد، والمصرّ، والموجع. يحدث هذا البريق الاستثنائي»

وقتها احتفلت معه باستردادها لماستها الزرقاء، بعد أن فكّت رهنها، ورفضت عرضًا مغريًا من دونيا لوليا في المساهمة في مؤسّسة تجارية يملكها تجّار سوريّون، متخصّصة بصناعة النسيج. وهي واحدة من تلك المؤسّسات السوريّة التي ستصبح معروفة على مستوى البرازيل، بعد أن استطاع مالكوها تجاوز كلّ الصعوبات الماليّة بسبب ظروف الحرب، وغدر مياه الأطلسي التي ابتلعت حمولات ضخمة أدّت إلى إفلاس تامّ لعدد كبير من التجّار

* * *

انغمست ألماظ في تلك الطقوس التي تمارسها الذاكرات المهاجرة، من احتفالات وتذكّرات احتفائيّة، تصون كلّ تلك الأشياء التي يجلبها البشر من مسقط الرأس، أشياء نخافها أن تفلت في لمح البصر، ثم تختفي كالأشباح.

أقلعت عن نشاطها في الجمعيّات الخيريّة. حين واجهت

حاجز الضغائن المحمولة من الوطن، فراحت تستطيب الحياد أمام التعصّب الطائفي الذي يكون فاقعًا في أحيان كثيرة، مُظهرًا نقطة الضعف الأزليّة لدى المهاجرين العرب.

بالكاد كانت تخلو المناسبات الاجتماعيّة في النوادي العربيّة، من لحظة يجري فيها تقاذف التُهم وأحيانًا الحقائق ويتحوّل المدح إلى قدح. حتى السهرات الفاخرة منها تنقلب إلى جوّ يخلو من اللياقة الاجتماعيّة، ويغدو «الشتم» ذوقًا «وطنيًّا»

خولين كراسنوف كان معجبًا بظرافة حبيبته حين تتفادى ذلك النوع من الصدامات، وينعتها قائلاً «فنّانة التكتّم اللطيف» ويشرح لها قائلاً «كل شعب يظنّ أنّ النبل والمروءة من ابتكاره والسوقيّة منبتها جينات الشعوب الأخرى. ندين لأوطاننا بالجيّد والسيّئ»

كان خولين من الجالية التي يُطلق عليها في البرازيل «روستوس»، الكلمة التي ينعت فيها كلّ من جاء من روسيا وبولونيا وألبانيا وتلك النواحي؛ فيما ألماظ من الذين يُنعتون بـ «توركوس» أي كلّ من جاء من تركيا والشرق الأوسط بالعموم.

فجأة توفي يوسف زيلخا وهو نائم في فراشه، وروميّة خانم لم تذرف دمعة واحدة، فقط عانقته ووضعت شفتيها على عنقه، وماتت بالهدوء ذاته الذي مات به يوسف.

بعد عدّة أشهر، ظهرت الآنسة جوليا، ابنة آسيا خانم. وصلت ساو پاولو متأبّطة ذراع جميل بك.

ألماظ لم تكن قد نسيت وجهه في آخر مرّة رأته فيها قبل مغادرة باريس. كان يشرب النبيذ، ويشتم العثمانيين عقب عودته من دمشق، وبيروت. وفي جيبه توقيعات مهمّة لأعيان دمشقيين، يؤكّدون فيها تأييدهم لمؤتمر جريء عقده شبّان المعارضة السوريّة، الذين كانت تتراوح أعمارهم ما بين أقلّ من العشرين بقليل ومنتصف العشرينيّات. وكان لقلّة خبرتهم بالمساومات العثمانيّة أثر محبط على نتائج مؤتمرهم، الذي عقدوه بإصرار متحدّين إرادة العثمانيين

فيما يتعلّق بجميل بك، فقد صَدَرَ بحقّه حكم غيابيّ بالنفي. ووجد في ذلك فرصة مثاليّة للتهرّب من خطيبته الآنسة وثيرة، وتحقيق حلمه بالاقتران بالآنسة جوليا، التي خلّف فرارها من دمشق دويًّا هائلاً في الأوساط الاجتماعيّة المسيحيّة والمسلمة.

كان جميل بك يقوم بزيارة لشرح الأوضاع السياسيّة في سوريا للجالية العربيّة في البرازيل قبلها كان قد زار الأرجنتين والتشيلي.

إذن، روميّة خانم كانت عمّته، وهو لم يكن إلّا ذلك الصبيّ الشقي الذي جذب ثوبها ودفعها معه صوب مياه النهر !! ألماظ أدهشتها المفاجأة.

قَصَدَ ساو باولو، ليتمّم إجراءات حصوله على ميراث عمّته روميّة خانم المتوفّاة حديثًا من دون أن تخلّف ورثة وراءها

كان سعيدًا بسماع ألماظ، وهي تحكي له عن عمّته التي كانت قد هربت مع حبيبها اليهودي، قبل ثلاثين سنة من دمشق.

ولم يعرف أحد عنهما شيئًا إلى أن ماتا كلاهما

خصّت ابن شقيقها جميل بوصيّتها، ربّما لأنّه كان السبب في سقوطها في ماء بردى حتى تلتقي منقذها يوسف، وتتغيّر حياتها هكذا خمّنت يومها ألماظ التي كانت قد بدأت تتفهّم الحبّ أكثر سُرَّ جميل بك كثيرًا، لأنّ عمّته كانت محبوبة ومعروفة بأفضالها الخيريّة في أوساط الجالية السوريّة.

في زياراتهما المتتالية، اكتشفت ألماظ أشياء كثيرة، أهمّها أنّ لقاءها بجميل بك لم يكن مصادفة، وذلك حين همس لها رسالة شفهيّة من زوجها الكونت. ودُهشت، وهو يعرض عليها فتح صفحة جديدة في حياتهما، ويؤكّد لها أنّه نادم على ما كان منه من إهمال لأنوثتها، ويمنحها وقتًا لا يتجاوز ثلاثة أشهر قبل أن يبدأ بإجراءات الطلاق، وسيضطرّ فيه آسفًا لإثبات خيانتها له كلّ تلك السنوات، والإثباتات متوافرة لديه.

رغم وفرة الأخبار التفصيليّة، الكثيرة، التي حكاها لها عن السياسة في بلدها، لكن ما عرفته عن نادجا وزوفينار كان أكثر إثارة بالنسبة لها الاثنتان كانتا تعملان لحساب الأتراك والفرنسيين، في الوقت نفسه، وتبيعان أسرار الجمعيّة العربيّة الفتاة بأسعار متفاوتة

ألماظ فهمت طبيعة العلاقة التي ربطتها بالبكباشي محمود، في وقت متأخّر، ولم تعد معنيّة كثيرًا بهما

* *

جميل بك وجدَ نفسه مضطرًّا لحضور مراسم لم يكن مقتنعًا بها إطلاقًا فليس سهلاً على أيّ مسلم، حتى لو كان متغربنًا، أن يوافق على حمل آنيّة من الخزف الصيني فيها رماد عمّته مخلوط برماد زوجها، لينثر الرماد في نهر بردى، تحديدًا ذلك الفرع الذي يعبر مرج صدر الباز.

كان محتارًا بشأن معتقدات الزوجين الراحلين!

منزلهما كان زاخرًا بالرموز الدينيّة، لكلا الدينين. كتاب التوراة ظلّ على حاله موجودًا فوق سرير الزوج الراحل. والقرآن مقابله على سرير عمّته. فلماذا الحرق؟! لماذا أوصيا كلاهما بحرق جسديهما؟ ألم يعثرا على طريقة للتلاقي غير الرماد؟!

جالت ألماظ، برفقة جميل بك وجوليا، في أنحاء المنزل الذي قرّر عميد الجالية السوريّة، الدون أنطون، شراءه وتحويله إلى نادٍ للجالية. بدا كما لو أنّ كلّ شيء مصنوع في دمشق، مرّ جميل بك من أمام المرايا المؤطّرة بخشب محفور ومذهّب. وجاهز للإيعاز لنثار الذكريات بالتسرّب بهدوء مستعجل وطيّب. كانت الغرف كلّها تحوي «كتبيّة» لوضع الكتب ومختلف الحاجات، و«خرستانات» ـ تلك الخزائن الصغيرة المحدّدة بخشب ملوّن بدهان هندي، مع رفوف مزيّنة بالخزف الصيني، و«يوك» ـ وهذا خزانة أكبر من «الخرستان» توضع له ستارة لتخبّئ خلفها الفرش واللحف والوسائد.

غرفة نومها، أثاثها مصنوع من خشب الجوز المطعّم بالصدف. الخزانة بثماني درفات، مغطّاة بالمرايا . وكوّة على

شكل قوس قوطي، ضمّت النراجيل وفناجين القهوة وقوارير ماء الورد. ومجمرة العطور تنتصب كأنّها في مهمّة أخيرة تتشبّث بإنجازها

حضرت ألماظ مع خولين حفلة وداعيّة أُقيمت على شرفهما وكانت تلك المرّة الأخيرة التي رأت فيها كلًّا من جميل بك وجوليا، التي اعتنقت الإسلام حديثًا من دون أن تغيّر شيئًا في عادات ملبسها!

ألماظ، تجاهلت أنّ جميل بك كان ينتظر جوابها بشأن الكونت. في كلّ الأحوال مهما كان جوابها للكونت، فإنّ جميل بك لم يكن ليوصله، لأنّ الباخرة «دوقة دي أرانزا» غرقت في عرض الأطلسي وفي عمق المياه الزرقاء، استقرّ جسدا الزوجين المتحابّين، والآنيّة الخزفيّة الصينيّة، التي تحتضن رماد روميّة ويوسف زيلخا، في قعر المحيط إلى الأبد.

* * *

في كل مرّة كانت ألماظ برفقة خولين تحبّ أن تسمع من عميد الجالية السوريّة في ساو پاولو، الدون أنطون عجمي، ذكرياته عن دمشق. كان قد احتفل بعيد ميلاده الثمانين. وفي كلّ سهرة يحضرها يتحلّق حوله الكبار والصغار، مسلمين ومسيحيين ويهود ليحكي لهم عن مدينة تشبه وطنًا في الحلم أو الحكايات أو الذكريات. الدون أنطون عملَ في بداية حياته سائس خيل في إسطبلات الأمير عبد القادر الجزائري.

ومن منزل الأمير الصيفي الكائن في حيّ الصالحيّة على سفح

قاسيون، حمل ما يشبه مذكّرات تفصيليّة عن السهرات الصيفيّة التي كان يجري تنظيمها على السطوح ليستقبل الوجهاء والأعيان الأوروبيين، النبلاء الفرنسيين، واللوردات البريطانيين، والسائحين الأميركيين، والمبشّرين البروتستانتيين، والكاثوليكيين، والحجّاج المسلمين من آسيا وأفريقيا كان الخواجة يحكي بشغف عن بساتين المشمش والبرتقال، وأصوات نواعير الماء في البساتين المحيطة بالمدينة.

روى بدقّة معلومات عن أشهر الشخصيّات الأجنبيّة التي عاشت في دمشق في النصف الثاني من القرن التاسع عشر، مثل السنيور كاستيلي القنصل الإيطالي، وزوجته، والليدي جين دغبي التي هجرت موطنها بريطانيا لتعيش مع شيخ عشيرة بدوي وقعت في غرامه، والليدي إيزابيل بورتون زوجة القنصل البريطاني.

الليدي إيزابيل استعانت لمرّات كثيرة بخبرة أنطون في تنظيم حديقتها «المتوحّشة»، فقد كانت قد أحضرت معها خمسة كلاب من فصيلة «سنت برنارد»، ثم أضافت عليها جروًا حمله لها ذات يوم أنطون، عَثَرَ عليه على ضفّة بردى قرب باب الفراديس حيث واحد من بيوت الأمير وإسطبلاته؛ وهرّة أعجميّة بيضاء حصل عليها من السوق من أحد التجّار الأفغانيين؛ وثلاثة رؤوس من الماعز لأجل الحليب؛ وتشكيلة من الطيور والحمام؛ وحمل صغير جلبه لها من الغوطة؛ وشبل نمر اشترته الليدي من رجل بدوي قابلته في أحد الخانات.

ساعدها أنطون بزرع بذور إنكليزيّة جلبتها معها وسرعان ما

بدأت المشكلات. فالحمائم والدجاج أكلت البذور، والهرّة افترست الحمام، والكلاب بدأت بمطاردة الهرّة. أمّا شبل النمر، فقد قضى على الحمل الصغير، وأرهق الماعز بمناوراته الهجوميّة المتكرّرة وأثار ذعر الخيول.

لعدّة أشهر ظلّ أنطون يحضر بشكل شبه يومي إلى منزل الليدي الذي أصبح يشبه غابة صغيرة. أفرادها يتربّصون ببعضهم بعضًا ذات مرّة وصل أنطون، فيما الشبل المشاكس يحاصر فتاة شابّة، كانت قد حلّت ضيفة على منزل الليدي قادمة من إنكلترا حديثًا

الشبل المعتاد على مماحكاته اليوميّة لأنطون، انسحب فورًا تاركًا الفتاة تعاني آثار الخوف.

بعد أسبوعين فقط، تزوّجت الفتاة من أنطون، وغادرت معه إلى موطنها لتبقى هناك مدّة عامين.

بعدها هاجرا سويًّا إلى ساو پاولو حيث عمل أنطون بتجارة الأقمشة والأجواخ الإنكليزيّة، وبعد ثلاثين عامًا كان واحدًا من أثرياء ساو پاولو

روى أنطون لألماظ كيف أنّه افتقد كثيرًا للحمّامات الشاميّة!

وفي لندن كان يصادف الليدي إيزابيل التي أُرغمت على العودة إلى إنكلترا، بعد استدعاء زوجها من قبل الحكومة الإنكليزيّة.

كانت الليدي تقصد الحمّامات التركيّة بشارع جيرمن بلندن. ومرارًا، شكَت لأنطون رداءة تلك الحمّامات، متذكّرة حمّامات دمشق وعطورها بأسًى بالغ.

كانت تحنّ بشدّة لدمشق، وتؤكّد أنّها ودّعت السعادة بتوديعها لدمشق. وكلّ تلك التفاصيل اطّلع عليها الشعب الإنكليزي عندما كتبت إيزابيل بورتون مذكّراتها بعنوان «مرآة دمشق».

كلّ جالية كانت تحرس مذكّراتها المتخثّرة بفعل الوقت. قد يختزل تلك المذكّرات زيٌّ مصنوع من قماشة محايدة، نحمّلها كلّ حميميّة تقليد محمول من أصقاع بعيدة إلى أرض جديدة قريبة، تحتمل كلّ ممارسات البشر الممكنة، في سبيل تثبيت وتنظيم روزنامات مشغولة من فوضى وتشويش على وشك أن تمحوه الأيّام.

مع كلّ تلك القصص الموزّعة بين الڤودكا الروسيّة والنبيذ الفرنسي والعَرَق السوري، تأكّدت ألماظ أنّ التاريخ لا يُعيد نفسه وحسب، إنّما في أحيان كثيرة يطابق نفسه.

كانت آخر مناسبة حضرتها ألماظ مع خولين كراسنوف، في النادي الرياضي السوري، بمناسبة فوزه على نادي بالميراس، وبعد تعادله مع مكنزي بورتوغيزا ولأنّ غالبيّة الشبّان الذين لعبوا وأحرزوا ذلك النصر كانوا من يهود حلب، فقد قدّمت أشهى المأكولات الحلبيّة، وضمنها تلك الأكلة الشعبيّة الطريفة التي يسمّيها أهل حلب «يهودي مسافر»، وهي عبارة عن برغل بالكوسا

والباذنجان والكزبرة والثوم. وضحك الجميع ممّا قاله الدون أنطون عن سبب تسمية تلك الأكلة، شارحًا أنّ يهود دمشق كانوا يأكلونها باستمرار ويسمّونها «مسلم هربان»، ولمّا صار المسلمون يحضّرونها ويأكلونها سمّوها «يهودي مسافر»

تلك المناسبة افتقدت بمرارة لحضور روميّة خانم وزوجها يوسف زيلخا كان الجميع يتحدّثون عن تزامن وفاتهما المدهش. خولين وحده قال: الحبّ، هذا الحبّ الذي يمرّ كلّ ألف عام!

لكنّ الحبّ لم يكن سببًا كافيًا لأن تموت ألماظ عقب موت خولين!

* * *

«زايكا، لوبيمايا، كيسا». ستعلق تلك الكلمات الروسيّة، التي كان يقولها خولين مدلّلاً حبيبته الدمشقيّة، في ذهن ألماظ مثل جنّيّ في قمقم ملعون.

الباخرة «سيلڤيا» من بواخر شركة «فابر» محمولها أربعة عشر طنًّا مضاف إليها أحزان ألماظ التي لم تبرّدها مراوح الباخرة ولا مياهها المبرّدة، عادت شاردة هزيلة تقتات بعض الفاكهة والجبن. المسافرة الوحيدة التي لم تكن تبالي بمطالعة الحوادث والأخبار التي كان ينقلها اللاسلكي الذي تصله ليلاً نهارًا، فتُكتب على لوح خاصّ ويقرأ من يشاء. ولم تكترث بالأفلام التي تعرضها السينما في الدرجات الثلاث من دون مقابل.

لكن حتى ذلك الاختراع الذي عشقته ألماظ لم يعد مثيرًا،

بعد موت خولين كراسنوف.

للمرّة الأولى عرفتُ لماذا الحزانى يلبسون الأسود. وبعمق فهمتُ أنّنا نرتدي الأسود لنشنّ هجومًا كاسحًا وفي الوقت نفسه نمارس تأبينًا لشيء سرّيّ لن نعترف به قطّ. نغطّي حقيقةَ ما حدث ذات مرّة. ونعترف بسرّيّة تامّة أنّنا تمزّقْنا إربًا إربًا نرتدي الأسود، عندما نشعر أنّنا محاصرون من أعداء كُثُر لكنّنا نفشل بتوجيه الاتّهام، أو نأبى، فنلبس ثيابًا سوداء ! نحس الألم بأجسادنا ونستغيث بغريزة حبّ البقاء فينا بالأسود نريد أن نعيش مستوى المعاناة نفسه تعبيرًا عن الإحساس الجسدي بالغياب؟!

نضلّل أنفسنا أم غيرنا؟ نريد أن نحوِّر أجسادنا كخطوة أولى لتحوير الداخل. !

بعد سبع سنوات من رحلتها إلى ساو پاولو، عادت ألماظ لتقطع الأطلسي في الاتّجاه المعاكس، وتعود إلى باريس مثقلة بحزن نهائي، خلَّفه في قلبها موت خولين كراسنوف، الذي مات بهدوء. لم يمرض، لم يشتكِ. فقط صرّح أنّ رأسه يؤلمه، قال ذلك، وتمدّد على الأريكة بانتظار أن تنهي ألماظ إعداد العشاء الذي لم يتناوله قطّ.

كانت تحمل معها صورة جمعتها مع خولين كراسنوف، في وقت غدا فيه التصوير الضوئي استراتيجيّة جديدة تمارس تحريم النسيان. وسيظلّ يتطوّر هذا الفن بسبب خوفنا من انمحاء

الصور. فنّ ـ اختراع مفاده أنّ لحظات سابقة مضت ومرّت ستكون محفوظة ومستعارة بتمامها، بلونين لا يقبلان الشوائب الأبيض والأسود. ومع كلّ صورة نلتقطها يُتاح لنا الوقوف على عتبة ما انقضى الماضي مثبّت، ممسوك، نحمله معنا، نتأبّطه متواريًا داخل قطعة من الورق المقوّى مفخخة بالجمال الذي مر وعشناه كلّه، ونخشى أنّه غير عائد!

باريس مرّة أخرى..

لو أنّها جميلة جدًّا ما تزوّجتها

يمكن لكلّ النساء أن يكنّ جميلات إذا أردن. ولتؤكّد ألماظ قناعتها تلك، قالت: «مصطفى كمال أتاتورك قال لصحفيّة أجنبيّة سألته عن عروسه لطيفة خانم: «لو أنّها جميلة جدًّا ما تزوّجتها، فأنا رجل غيور! أعجبني ذكاؤها وثقافتها وتربيتها»» لمرّات كثيرة، كان الكونت يسمع ألماظ تردّد ما قاله القائد التركي عن زوجته لطيفة خانم أفندي، وقد لفَتَ أنظار العالم، وهو يفتح أبواب الحرّيّة للمرأة المسلمة في تركيا، ويسمح لزوجته الصغيرة المتعلّمة بمرافقته في كلّ تحرّكاته، ويفرض على مضيفيه في أنحاء تركيا استقباله مع زوجاتهم. وتناقلت الصحف العالميّة صورة الحصان «سكاريا» ـ حصان عربي ذو ثلاث قوائم بيضاء حتى الرُكَب، ومسدّسي الجنرال تريكوبيس ـ جنرال يوناني أسَره

أتاتورك في أحد انتصاراته. أشياء اكتسبت شهرتها لأنّها كانت هديّة أتاتورك لزوجته. «هديّة تليق بقائد عسكري، أين الألماس؟» تقول إحدى الضيفات، بينما تعلّق ضيفة أخرى على صورة لطيفة خانم أفندي التي تظهر على غلاف مجلّة «سوس» أي «الزينة» بالتركيّة: «هذه الخانم قصيرة وليست جميلة»

تركيا، كانت في ذلك الوقت، مأخوذة بأتاتورك، وهو يشرب الأنخاب مع لطيفة خانم على ظهر سفينة حربيّة، الطرّاد «حميديّة» في البحر الأسود، فيما القائد المنتصر يسمح لها أن تُشبع فضولها بتفحّص المدافع والطوربيدات، تحت أنظار صحفيين من كلّ أنحاء العالم. وهو المعتزّ بزوجة تركيّة مسلمة «مودرن»، تجيد الإنكليزيّة والفرنسيّة، درست في مدرسة تيودور هول قرب تشيسلهرست في إنكلترا المدرسة التي ستتنافس الأرستقراطيّة المسلمة في سوريا ولبنان ومصر، على إرسال آنساتهم للدراسة هناك، يدرسن الرياضيّات والجغرافيا والتاريخ وعلم النبات وعلم الفلك والكيمياء والأدب واللغتين اللاتينيّة والفرنسيّة والرسم والخطّ والتربية البدنيّة مع مدرّسين مختصّين لكلّ مادّة. كذلك يتعلّمن فنون الرقص والعزف على البيانو وركوب الخيل وألعاب التنس. مدرسة تقام فيها المناظرات العلميّة بكثرة، إضافة لرحلات إلى لندن لمشاهدة معارض الرسم والمتاحف والعروض الأوپراليّة.

إحدى السهرات انتهت بشجار بين ضيف دمشقي مسلم وزوجته التي جاءت برفقته سافرة الوجه، حين تحدّثت بإعجاب

عن نساء فرنسا قال الزوج «الضيف» الحانق لزوجته بسخرية ولؤم: «عزيزتي لو تتقنين طبخ الديك الرومي مع البرغل وحساء الشعيريّة، أكلتي المفضّلة، أنفع لك من كلّ هذا الهراء» وبمساهمة ألماظ الحادّة، في مناقشة حقوق النساء في وطنها، انتهت السهرة باتّهام من ضيفها «تريدين دولة تبيح الفحشاء والإتجار بلا عيب بالأعراض، رأيتُ هنا في باريس كيف تضجّ جادّاتها وأرصفتها ومنتزهاتها بنساء يبعن أجسادهن بلا حياء»

ألماظ لم تسكت له، واستنكرت أنّه لم ير من باريس متاحفها وحدائقها وأوابدها إنّما رأى مومساتها المومسات، اللواتي تضجّ بهن الشام لكن متسّرات ومموّهات بالجلابيب!

زوجته رئيفة خانم، التي كانت من المسلمات اللواتي سمح لهن أهاليهن بارتياد مدارس أنشأتها الإرساليات الدينيّة الأجنبيّة لتعليم البنات المسيحيّات في دمشق، أخذت جانب ألماظ، خلال الحديث الحادّ الذي جرى بين ألماظ وضيفها عقب ذلك بشهر واحد، تطلّقا عاد الزوج إلى دمشق وقد أقسم على الزواج بفتاة أمّيّة تمامًا، حتى لا تسبّب له المشاكل أمّا طليقته فقد خلعت حجابها ورفضت العودة إلى أهلها بدمشق، وعملت في مجال الخياطة والأزياء التي تحبّها كثيرًا استبدلت اسمها الشرقي «رئيفة» بآخر غربي، وأصبحت مدام «روزيت» التي لا ترتدي غير ثياب الديكولتيه العارية الظهر، وغدت صديقة ألماظ المفضّلة.

مرّات كثيرة اضطرّت فيها ألماظ للانسحاب من سهرة ما، تُقيمها الجالية السوريّة في باريس، بسبب ذلك الطراز من

النقاشات التي تتحوّل إلى عراك كلامي بين المتعلّمين المتخرّجين من الكتاتيب التي يديرها المشايخ، وتقتصر دروسهم على الصرف والنحو والعلوم الفقهيّة وبعض الحساب والجغرافيا، كتلك المدرسة في زقاق لبوص، في دمشق، وبين المتعلّمين المتخرّجين من مدارس أجنبيّة مثل الفرير والعازاريّة والأليانس.

وكان الفريق الأوّل يتّهم الفريق الثاني بقولهم «ملحدون، وتخرّجوا ليصبحوا عملاء للغرب، وكلّ واحد منهم بمثابة سهم ناري على أمّته» وتحتدّ النقاشات، إذا ما تصادف وجود بعض المتعلّمين الدمشقيين الذين أرسلهم أهلهم للدراسة في المدرسة الشاهانيّة الملكيّة في الآستانة، وبعد ذلك غادروا سرًّا إلى باريس، ليتمّوا تحصيلهم العلمي في السوربون. وكان هؤلاء أشدّ المتعلّمين نقدًا لمجتمعاتهم المحافظة.

بعد مرور سنتين على عودة ألماظ إلى باريس عقب إبرام اتّفاق ينصّ على محاولة جدّيّة لإنجاب وريث للكونت، ومن دون أن تلمس اهتمامًا كافيًا منه لتنفيذ الاتّفاق، فيما تفوح من بزّاته عطور نسائيّة مختلفة. ألماظ هذه هدّدت الكونت بالرحيل مجدّدًا قال لها وهو يتحضر لملاقاة واحدة من عشيقاته، متألّقًا بقميص من الحرير بلون الكريم ويضع ربطة عنق من طراز الفراشة: «Bon voyage»

اقتصرت مهامّها في حياته على الإشراف على العشاء مساء كلّ سبت، حيث مائدة تجمع عشرين شخصًا على الأقلّ. تكتفي بتوجيه الإرشادات للندل في بزّاتهم البيضاء، وهم يقومون على

خدمة مائدة العشاء. كانت تقدّم سبعة أصناف أو ثمانية من الطعام بالتتابع. مائدة معدّة بذوق رفيع تستخدم فيها أدوات البورسلان والكريستال والفضّة. تشرف على إعداد الطعام من المطبخين الدمشقي والفرنسي. وببراعة تحضِّر اللحم المنكّه بالنبيذ، فيما الكونت يعلّق ساخرًا على رسم كاريكاتوري في جريدة للجالية العربيّة ـ يمثّل الدول الأوروبيّة في مؤتمر لوزان، وبدت الكرة الأرضيّة بصورة بطّيخة على مائدة التقسيم.

كانت ألماظ دائمًا ترتدي الثياب بذوق باذخ، ذوق سيّدة مودرن: التايور والقفّازات. وتعزف سوناتا ضوء القمر، لبيتهوڤن. فقط، لأنّ خولين كان يعزفها ويحبّها

ودائمًا أثبتت لضيوفها أنّها ذوّاقة: لديها أوان خاصّة لكلّ طعام. تصنع الليكور وشراب الكرز على الطريقة الدمشقيّة. تفرش الطاولات بالكتّان الأبيض المنشّى، ولا تنسى أن ترمي ملاحظات لاذعة لبعض مُحدَثي النعمة الذين يصادف حضورهم بين المدعوّين: «الأرستقراطيّة ليست أن تحسن الأكل على مائدة فيها أنواع لا تُحصى من الشوك والسكاكين وثلاث كؤوس كريستاليّة بأحجام متفاوتة أمامك، فيكون عليك أن تنهي طعامك دون أن تخطئ. وكثيرًا ما تنعتهم بـ «النوڤوريش» وتعني بالفرنسيّة حديث النعمة، وتؤكّد أنّهم خطرون لأن لا ذوق لهم.

ألماظ كانت تحتفظ لنفسها بفكرة إنشاء جمعيّة نسائيّة تطالب بتحرّر المرأة في دمشق. وتتابع أخبار النساء في الوطن، وتحديدًا اللواتي نزعن الحجاب، وسط اعتراضات غاضبة تتّهم

النساء اللواتي بدأن يدخلن الأزياء الأوروبيّة على ألبستهنّ اليوميّة، وأصبحت عبارة (كلّ شي فرنجي صار برنجي) ـ وبرنجي كلمة تركيّة تعني باب أوّل أي «first class» ـ تُلقى على مسامع النساء اللواتي كنّ يُقْدمنَ على تغيير أزيائهنّ الشرقيّة المحافظة.

في بيروت، بدأ الرجال يقبّلون أيدي النساء على الطريقة الغربيّة. وتتعلّمُ الفتيات رقص الفالس وسط اعتراض الرجال المعمّمين والمطربشين. كلّ تلك الأخبار كانت تنقلها روزيت لها، والتي أصبحت شريكة ألماظ في تجارة الثياب النسائيّة والعطور وأحمر الشفاه. روزيت حوّلت تجارتها إلى بيروت عندما كادت تُقتل على يديْ عمّها الغاضب من تمرّدها الذي سبّب لعائلتها فضيحة! ولم تعد إلى دمشق بعدها

حكت لألماظ كيف أنّ فتيات دمشق كنّ يشترين أحمر الشفاه بشكل سرّي.

دمشق..

في شهر أيّار لعام ١٩٢٥، كانت ألماظ تزور دمشق لأوّل مرّة عقب زواجها ومغادرتها مع الكونت إلى باريس.

اضطرّت، كزوجة رجل علاقته وطيدة بالفرنسيين، أن تشارك الفرنسيّات اللواتي كنّ يقمن في دمشق كزوجات للضبّاط، ويعانين من حياة تشبه السجن بسبب تحرّكات الثوّار في ضواحي دمشق، احتفالات الفرنسيين بعيد «جان دارك» في العاشر من أيّار، حيث قاموا بنزهات على ضفاف نهر بردى، ورقصوا في مرقص أولمبيا وزيّنت دمشق بالأنوار المتلألئة والأعلام المرفرفة، وأطلقت المدافع قذائف مدوّية بالمناسبة.

وفي حزيران، دعيتْ إلى حضور افتتاح إحدى مدارس البنات في حيّ الصالحيّة، برفقة وجوه مرموقة مثل الدكتور عبد الرحمٰن الشهبندر والأمير سعيد الجزائري، وبعض المشايخ المتنوّرين،

وعدد من الصحفيين الذين يؤيّدون نزع الحجاب. ومن بين نساء دمشق كانت الكاتبة المشهورة ماري عجمي. ودار الحديث حول تلاؤم مناهج مدارس البنات الفرنسيّة مع ثقافة آنسات دمشق. فالبعض كان يرى في ذلك ثقافة تفصلهن عن الوسط الذي يعشن فيه.

ألماظ كانت فرحة برؤية الطالبات بلباسهنّ المدرسي وغالبيّتهن من المسلمات.

هتفت لنفسها «وأخيرًا» قبل مجيئها من باريس كانت قد علّقت في غرفتها صورة فوتوغرافيّة لصفيّة هانم زغلول، زوجة الزعيم المصري سعد باشا زغلول، العائد لتوّه من المنفى من جزيرة سيشل. والصورة كانت نشرت في مجلّة «اللطائف المصوّرة» فأثارت حفيظة المحافظين، والذين يرون عيبًا في نشر صور النساء الفوتوغرافيّة. كانت صفيّة هانم تظهر سافرة الوجه والرأس وفي عينيها نظرة تومئ إلى تمرّد المرأة القريب.

يومها ناقشت الكونت في ذلك، وتمنت أن يحدث شيء مماثل في دمشق. وفي الوقت نفسه كانت تتابع في الصحف الفرنسيّة أخبار الوجوه النسائيّة العربيّة السافرة التي شاركت في مؤتمر النساء في روما، واللواتي احتسين الشاي بحضور موسوليني.

دمشق بدت متململة بشكل واضح وبتأثير ثورة جبل العرب وسلطان باشا الأطرش على الفرنسيين راجت في الأسواق تجارة الأسلحة القديمة من دروع قديمة، وسراويل من الجلد الأصفر

المتآكل، ممّا كان يُرتدى سابقًا لأجل المبارزة بالسيوف، وعُلّقت على واجهات المحلّات عبارات مثل «الصبر مفتاح الفرج»

في أسواق دمشق، يمكن أن تلتقي الجركس والأناضوليين وشيوخ البدو ورجال المال اليهود البدينين والفرس والهنود والأتراك والجزائريين والأفغان. وكلّ ما يمكن أن تبدعه قارّة آسيا من تنوّع وتلوّن لغات مختلفة؛ إضافة إلى بغال وحمير وخيول وجِمال. كذلك دراويش ومتسوّلين.

كانت ألماظ كلّ يوم تعود إلى أمّها متورّمة الرجلين، بعد أن تكون قضت نهارها تجوب الأسواق وتقطع الشارع الواحد مرّتين أحيانًا واظبت على التسوّق من حانوت «سركيس»، والذي كان يُعدّ مصدرًا مثيرًا لأهمّ الإشاعات الرائجة في دمشق. وكانت قد أقامت في منزل والدتها الذي بدا خاويًا وحزينًا بعد مقتل شقيقها فيليب.

كلّ شيء كان مهملاً، فقط النافورة المائيّة الفوّارة التي تميّز كلّ بيوت دمشق، كانت تدلّ على الحياة في المنزل.

الكونت لم يحتمل حالة «الحِداد» التي تخيّم على المنزل، وفضّل الإقامة في فندق ڤكتوريا، متنازلاً عن المأكولات اللذيذة التي يعدّها الطبّاخ المغربي البارع في خدملك المنزل، ليضمن سهرات طيّبة مع كأس العَرَق، والفتيات الأجنبيّات اللواتي ملأن ملاهي دمشق أضعافًا مضاعفة عقب دخول الفرنسيين.

كان الكونت سعيدًا بتلك التشكيلة المتنوّعة من «الفراشات»: يونانيّات وروسيّات، والمغنّية الشهيرة «باهيا» المغويّة الكريتيّة،

التي كانت بارعة بإفراغ جيوب الرجال. ـ رغم نحافة ساقيها ـ كما اعترض الكونت على جملة من الرجال المعجبين بجمالها وظلّ مصرًّا أنّ جمال المرأة يبدأ بساقيها

في منزل الأمير سعيد الجزائري، في حيّ العمارة، شربت ألماظ الشاي المعطّر بالعنبر وهي تجول مع الكونت برفقة الأمير، أمام ڤترينات زجاجيّة تحفل بما يشبه متحفًا لتاريخ الأمير عبد القادر الجزائري: سيفًا ذا قبضة ثمينة مقدّمًا من نابليون الثالث، وبندقيّة جميلة ذات أخمص مزيّن منقوش برسوم فضّيّة هديّة من الملكة ڤكتوريا وبعد ذلك قدّمت القهوة للمدعوّين فوق السطح الذي منه تُرى مآذن الجامع الأموي.

وبغضب، أكملت السهرة التي دعيت لحضورها في منزل الجنرال ساراي المؤثّث بخشبيّات ثمينة كانت كلّها للملك فيصل، تمّ الاستيلاء عليها بوقاحة. وفي الوقت نفسه كانت تفرحها أخبار مشاكل جبل العرب مع الكابتن كاربليه، الذي بتصرّفاته المتهوّرة، قاد زعماء الدروز إلى إعلان ثورة، ستتسبّب، يومًا ما، بخروج الفرنسيين نهائيًّا من سوريا

مع قدوم الشتاء، فضّل الكونت المغادرة إلى بيروت مندسًّا بين بضع نساء من زوجات الضبّاط الفرنسيين. غادرن يوميّات دمشق التي تفوح منها روائح البارود والدماء، بتشجيع من أزواجهنّ ـ كما كان يقول الكونت ـ ليتسنى لهم مغازلة نساء أخريات باطمئنان وراحة بال!

ألماظ ظلّت إلى جوار أمّها مع صحفيّة فرنسيّة اسمها

«أليس» استضافتها في القصر الواسع والخاوي. راحت ترافقها في جولاتها كلّما سمحت لهما الفرصة في الخروج بأمان، لتطلعها على ما يخرّبه الفرنسيّون مع كلّ يوم جديد يمر على دمشق. في وقت صمتت الصحف الفرنسيّة عن كلّ ما يجري في سوريا، وأصبح من الضروري استدراج الصحفيين الشرفاء من الفرنسيين لينقلوا الحقيقة إلى مواطنيهم. في حين كانت الصحف العربيّة تقوم بنشر صور المشنوقين بتهمة التمرّد؛ وبعض أصحاب المحلّات قاموا بعرض تلك الصور في واجهات محلّاتهم، فهشّمها الجنود الفرنسيّون بأخماص بنادقهم، ردًّا على التحدّي الواضح

وكان أحد تلك المحالّ محلًّا للسجّاد وتستثمره والدتها سيزا خانم، وقد تمّ نهبه تمامًا وظلّ الأجير وحيدًا مدمّى، ممّا أثار شفقة ألماظ بشدّة وهو يعتذر، لأنّه وضع صور المشنوقين وتسبّب بخراب المحلّ!

كان على ألماظ بيع واحدة من مجوهراتها لتُعيد تمويل المحلّ من دون علم والدتها الغارقة بحزنها فلم تَرَ ابنتها سببًا يدفعها لمزيد من الأسى. حتى واجهة محلّ المصوّر الإيطالي «ستيروني»، الذي قصدته لتبحث عن صور قديمة كان قد التقطها لشقيقها المتوفى، قد حُطّمت ولم يسلم المحلّ من بنادق الجنود، ولم تحمه صورة عَرَضها في واجهة المحلّ للمفوّض السامي، وهو يدخّن لفافة تبغ في خرائب قصر العظم.

ذلك الخراب تحديدًا ذكّرها بصديقتها في ساو پاولو، روميّة

خانم. كانت ستحزن كثيرًا لو أنّها كانت على قيد الحياة وعرفت ما جرى لقصور الشام.

قساوة الشتاء ولعلعة الرشّاشات وأصوات القنابل وجلبة المصفحات والشوارع المزدحمة بالقرويين النازحين من قراهم، التي دكّها الفرنسيّون فوق رؤوسهم، فلجأوا إلى حارات دمشق بحثًا عن أمان «موقّت»، وشكاوى التجّار المفلسين، والملّاكين المهدّمة أملاكهم كلّ ذلك لم يمنع ألماظ من البقاء في دمشق! وقطع بعض شوارعها التي تحوّلت إلى أخاديد عميقة من الوحل الأسود وبرك الماء القذر، واستعادة بعض صداقاتها القديمة والمشاركة في المناسبات التي قد تحضرها بعض نساء دمشق المتحرّرات والمثقّفات

كانت جادّة في محاولتها إنشاء جمعيّة نسائيّة تتبنى حقوق المرأة بالتعليم، لكنّ الظروف لم تكن في صالح مشروعها، الذي ظلّ شفهيًّا فالثوّار كانوا قد سيطروا على عقول الناس وأحاديثهم اليوميّة.

مرّات كثيرة لمحت فيها الطالبات الدمشقيّات، في إحدى المدارس الأميركيّة في حيّ الصالحيّة، يسرعن إلى تخاطف الصحف من الباعة ليعرفن عدد القتلى من الفرنسيين من دون أن يخفين بهجتهن وذات مرّة مرّت سيّارة المفوّض المسيو دوجوفنيل، وطلّ كثير منهن من النوافذ لكي يصرخن بشتائم غاضبة دلّت على وعي غير متوقّع بينهن، إذ واحدة من الفتيات صرخت بصوت أعلى من رفيقاتها وهي تطالبه بالاستقلال، الذي

يتغنى به تاريخ المسيو دوجوفنيل ويرفض منحه لوطنهن. المسيو مرّ من دون أن يفهم من جلبة الفتيات شيئًا، رغم أنّ الشتائم كانت باللغة الفرنسيّة! سعدت ألماظ برؤية المشهد وقَصّته لصديقتها الفرنسيّة «أليس» لكي تسجّله في مذكّراتها، التي كانت تكتبها خلال شتاء تميّز بنقص الطحين والمؤونات.

فقط الحطب كان متوافرًا أخشاب أشجار مختلفة ومتنوّعة كان يؤتى بها على ظهور الحمير، كانت تلك الأشلاء الخشبيّة ضحيّة بساتين وكروم اقتلعها الفرنسيّون ليحرموا الثوّار من الاختباء فيها

مع نهاية الشتاء، كانت ألماظ قد استثنت ماسة جدّتها، بابور، بينما باعت معظم ما تحمله معها من مجوهرات، لتشتري تلك القفف المحمّلة بأدوات المطابخ النحاسيّة والفضّيّة، والمصابيح والمفارش والوسائد والأرائك المكسيّة بالبروكار الأحمر، وكلّ النفائس التي اضطرّت نساء دمشق لبيعها لتغطية نفقات تصليح منازلهن الأثيرة على قلوبهنّ.

ألماظ أتت على آخر مصاغها الذهبي، وهي تنتزع البروكار والدامسكو من أيادي نساء الضبّاط النهمات لتلك الحاجيات الشرقيّة. كنّ يجلن في شوارع المدينة متعرّقات، وقد شُوّهت ملامحهنّ بالمكياج الذائب، يلبسن تنانير قصيرة من المخمل، ويكسين سيقانهنّ بجوارب ناعمة ملتصقة، وينتعلن أحذية ذات أكعاب عالية. زينتهن كانت تذكّرها بالريفيّات الفرنسيّات في أيّام الآحاد، وهن يبدين بصحّة جيّدة بصحبة أولادهن في عربات صغيرة تقودها الخادمات.

كان عليها أن تحترس كثيرًا خلال تنقّلها تحسّبًا من طيش سيّارة مليئة بالجنود، ورفيقات كاشفات الوجوه والصدور يحملن لفافات التبغ ويدخّن بشراهة ووقاحة.

كانت ألماظ مستاءة من وقاحة «الباطون المسلّح» الذي راح يغزو دمشق بذريعة تجميلها فنُصب فوق بردى جسرٌ، ليس إلّا نسخة مضحكة من الطراز الأوروبي، وغزت الأعمدة الإسمنتيّة أوابد المدينة الفاخرة. وبذريعة التجميل، اقتُلعت أجمل وأقدم أشجار الدلب في العالم.

ذات صباح ربيعي، رافقت «أليس» التي كانت ترغب في رسم مطرقة باب «البيمارستان» الأثريّة القديمة. حين وصلا، قام بوّاب عجوز بالتنازل عن كرسيّه لتجلس عليه أليس، وتتمكّن من رسم المطرقة العجيبة.

بينما «أليس» ترسم، وألماظ تراقبها، تناهى إلى سمعهما صوتٌ ناعم يعطي درسًا باللغة الفرنسيّة، ثم فُتح الباب نصف فتحة، وأطلّ منه وجه شابّة صغيرة جميلة. نادت رفيقاتها بعد أن رفعت منديلها عن وجهها، واجتمعن حول الرسّامة وصديقتها من دون أن يكترثن لتأنيب العجوز البوّاب الذي ارتفع صوته، واستدعى مدرّستهنّ التي رفعت منديلها أيضًا عن وجه باهر الجمال. المدرّسة دعت الفرنسيّة وصديقتها إلى الداخل

لبّتا الدعوة، وتقدّمتا وسط روائح الربيع التي تفوح بالمكان المزيّن بمداميك من الحجر الأسود والأبيض. «أليس» التقطت بعض الزخارف وراحت تدوّنها بشغف على أوراقها، بينما انصبّ

اهتمام ألماظ على التلميذات الخجولات، وهن منهمكات بتوفير الراحة للضيفتين.

جلبن كرسيًّا وطاولة «لأليس» فيما اعتذرت ألماظ عن الجلوس، وفضّلت التجوّل بالمكان وشربت القهوة التي تمّ تحضيرها فور دخولهما كانت مبتهجة بحقّ لرؤية الفتيات المسلمات يدرسن لغة غير لغتهن، وتفاءلت بأنّه في المستقبل القريب ستزول الفروق بين أزياء الفتيات المسلمات والمسيحيّات

عندما همّتا بالانصراف، قامت الفتيات بمناداة البوّاب: «حجّي. حجّي»، لكنّ الحجّي كان قد غادر لصلاة الظهر، وترك الباب وراءه موصدًا بما يشبه حجرة مربّعة الشكل ثقيلة جدًّا فتساعدن كلّهن وهن يضحكن لإزاحة الحجر الكبير الذي يسدّ الباب، حتى استطعن مباعدة المصراعين الكبيرين، واستطاعت ألماظ وصديقتها المرور عبر الثغرة بين المصراعين، وسط دعوات حارّة بالعودة مرّة أخرى واحتساء القهوة مع العنبر

حين رأت السيّدة سيزا أنّه أصبح على ابنتها مغادرة دمشق فورًا، كانت ألماظ قد نجت من حادث كاد يقتلها، وذلك عندما تعرّضت حافلة الترامواي على منحدر حيّ المهاجرين لإطلاق نار من قبل مجهولين!

إضافة إلى أنّ صديقتها الصحفيّة الفرنسيّة «أليس» كانت أصبحت مراقبة من قبل استخبارات بلدها، بعد أن كتبت مقالاً تحتجّ فيه على قصف دمشق بالقنابل؛ كذلك مُنع توزيع صحيفة «لو فينيكس» التي تصدر في مصر، وترأس تحريرها إحدى

حفيدات الشاعر الشهير لامارتين «السيّدة سانت بوان» يومها، كانت ألماظ قد قصدت محلّات لافاييت الباريسيّة التي افتُتح لها فرع في حيّ المهاجرين الدمشقي، لتشتري فستانًا يجاري الموضة، بعدما فرغت خزانتها من كلّ ما هو جديد. بعد بضعة أيّام رأت لافتة المحلّ ضمن حطام دار القوتلي بعد احتراقها بفعل القصف، وظلّت لافتة معلّقة بالهواء كُتب عليها (محلّات لافاييت الباريسيّة). كان واحدًا من المحلّات الفاخرة التي اعتادت الدمشقيّات التبضع منها ليواكبن نساء أوروبا قدر استطاعتهن وقد كن يرتدين تلك الثياب، تحت مآزرهن الفضفاضة التي ينزعنها فور دخول المنازل.

ألماظ، لم تفوّت أيًا من حفلات الاستقبال التي كانت تُدعى إليها من صديقاتها المسلمات أو اليهوديّات، حيث ظلّت تلك الحفلات تتيح مجالاً مثيرًا للمنافسة التي زادت حدّتها مع مستحضرات التجميل التي كانت تُجلب سرًّا من باريس

ستظلّ طويلاً تلك الصورة، التي التقطتها «أليس» لألماظ خانم عشيّة مغادرتهما لدمشق، معلّقة في ليوان سيزا خانم.

التُقطت تلك الصورة خلال سهرة، كانت تلبية لدعوة أحد أعيان دمشق الأكراد من عائلة إيبش، والذي كان صديقًا للأمير المصري يوسف كامل. وكان قد رافقه في رحلة صيد طويلة إلى أفريقيا استمرّت لمدّة عامين.

خلال تلك المدّة كانت تُرسل الطرائد إلى إنكلترا ليتمّ تحنيطها، وإعادة إرسالها إلى القاهرة ودمشق.

في ذلك المساء كانت حصّة السيّد إيبش قد وصلت حديثًا إلى منزله الواسع، وتمّ عرض المجموعة المذهلة في قاعة كبيرة، مزخرفة جدرانها بعروق الذهب، التي زاد بريقها مع أضواء الثريّات الكريستاليّة، ليسطع ضوؤها على أقدام الفيلة وجلود الأسود ورؤوس الزرافات، وعلى أعداد لا حصر لها من جماجم الظباء والأيائل والتيوس ذات القرون الضخمة.

وسط تلك الغابة من القرون والجماجم، وقفت ألماظ المندهشة من مشاهدة حيوانات رأتها فقط في الصور البريديّة، والتقطت «أليس» الصورة بكاميرتها ـ التي استطاعت استعادتها حديثًا بعد أن صودرت منها لعدّة أشهر، وذلك عندما كانت تهمّ بالتقاط صورة لمتمرّدين حكم عليهم بالإعدام رميًا بالرصاص، كان يقودهم جنود فرنسيّون إلى القلعة ـ ولم يفتهم انتزاع الكاميرا من مواطنتهم، التي فوجئت من صرامة أوامر الضبّاط بشأن محاصرة الصحفيين.

رغم البرقيّات الملحّة التي كان يوجّهها الكونت للخانم، فقد كان يدعوها متودّدًا للالتحاق به في بيروت، حيث كانت الأجواء مختلفة تمامًا

وخمّنت أنّه كان مستمتعًا كثيرًا هناك. لكنّها لم تقاوم سحر النفنوفة الحمراء التي زرعتها بيديها، رغبة منها في تلوين حديقة والدتها المهملة. النفنوفة تسلّقت مقرنصات الليوان، والياسمينة ناوشت الدالية، واشتبكت معها بتداخل مدهش. وطغى زهر

الليمون على المكان، برائحته النفّاذة.

وعادت المياه الفوّارة تتدفّق من النافورتين في باحة المنزل.

أرهقت ألماظ الخدم بتلميع الترابيع الفسيفسائيّة التي عادت تتوهّج بسبب إصرارها على استخدام كمِّيّات كبيرة من خلطات التلميع، التي كانت تحصل عليها بصعوبة في تلك الأيّام، وتدفع ثمنًا غاليًا لقائها

كان المنزل يتقاسمه طِرازان معماريّان. الطابق الأرضي تميّز بأبواب طويلة ومرتفعة جدًّا على النمط الفرنسي؛ والطابق الثاني كانت نوافذه مصمّمة على طراز شمال أفريقيا، وهو الطراز الذي ساد في بعض أجزاء دمشق عقب مجيء الأمير عبد القادر الجزائري.

كانت الدعامات الخشبيّة الرفيعة والمزخرفة تحتاج صيانة سريعة، بعد أن بهتت زخارفها الخشبيّة من التذهيب. خلال شهر أيّار أعادت طلاء الخشب بالورنيش و«تذهيب» كلّ الزخارف في المنزل بمساعدة جادّة وذكيّة من «أليس»، التي كانت متعجّبة من براعة الحرفيين، الذين اعتادوا منذ أمد بعيد على نحت الحجارة والرخام والخشب بخيال واسع أمكنهم من تزيين مدينتهم بزخارف ونقوش، كانت تحفًا حقيقيّة يبحث الغربيّون عنها بشغف. «أليس» التقطت صورًا تفصيليّة للمنزل الذي أُعيد تزيينه، وتغيّر ديكوره لمرّات عديدة خلال مئة سنة مرّت عليه.

هكذا فسّرت ألماظ لضيفتها سرّ بعض أركانه المبنيّة على

طراز الركوك، إضافة إلى نقوش رخاميّة، خمّنت «أليس» أنّها تعود إلى العصر المملوكي. وبعض حجارة الأساس كانت تؤكّد أنّها رومانيّة.

«أليس» كانت سعيدة جدًّا من مضيفتها، وهي تطلب منها أن تختار أيّ قطعة قماش من النفائس المنسوجة الكثيرة التي اشترتها ألماظ من نساء اضطررن لبيعها تحت وطأة الحاجة في الظروف الأخيرة.

كانت المجموعة مذهلة مشغولة من حرير قَطَعَ حوالى ثمانية آلاف كيلومتر من الصحاري والجبال والوديان ليصل دمشق. كانت أقمشة الدامسكو مزروعة بالفرسان والصيّادين والطرائد والأشجار والزهر والثمار. المجموعة تضمّنت غالب النقوش التي اعتاد النسّاجون في دمشق إبداعها، منها الأطلسي والتابوري والهرمزي والمنيّر والمفوّف والمسهّم والمعمّد والمعرّج والمهلهل والمطيّر والمخيّل وقع اختيار «أليس» على قطعة دامسكو تحمل نقشة «السبع ملوك»، وتعدّ الأغلى ثمنًا بين نقشات الدامسكو الأخرى.

وبين مجموعة ألماظ من البروكار، وجدت كلّ النقشات تقريبًا نقشة زهرة الكشمير، زهرة عمر الخيام، اللوزة الكرديّة، اللوزة الشاميّة، زهرة الخشخاش، اللوزة المجنّحة

ألماظ، كانت قد حزمت أمرها بشأن تلك الأقمشة النفيسة، شحنتها قبل أن تغادر إلى ساو پاولو كهديّة للنادي السوري هناك. أبقت على قطعة من الدامسكو الأبيض المعشّق بخيوط الفضّة،

يسمّيها الدمشقيّون «العاشق والمعشوق»، تمثّل عصفورين يقابلان بعضهما بعضًا مثل حبيبين يبحثان عن بعضهما وسط أحلام منسوجة من خيطان وأعصاب وذاكرة.

في أوّل آب كان موعد مغادرتها إلى بيروت. صادف ذلك مع ازدحام الطريق بسيّارات تحمل سيّدات أوروبيّات يهربن من الوضع المتأزّم في دمشق. لم يعد بمقدور تلك السيّدات الخروج إلى الأسواق، والتفاخر بعرض ملابسهنّ الأوروبيّة المستوردة من باريس، كما همست «أليس» لألماظ. وحين أوقفهم ثوّار من آل عكّاش على طريق الربوة تعاملوا معهن بلباقة أحرجت رفيقاتها الفرنسيّات اللواتي كنّ يرافقنها وهن ينعتن الثوّار بالهمجيّة. وفي محطّة الاستراحة قبيل شتورة بقليل اكتشفن أنّ السائق الذي كان يقود السيّارة، وكانت تظنّه ألماظ «أرمنيًّا»، لم يكن إلّا كولونيلاً فرنسيًّا متنكّرًا خوفًا من أن يكتشف أمره الثوّار

بيروت..

في بيروت، كانت المفوّضيّة الساميّة قد أمرت نساء وزوجات وبنات الضبّاط الفرنسيين باختصار علاقاتهم الاجتماعيّة، وظلّت محصورة فيما بينهم، والعيش ضمن ما يشبه مستعمرة فرنسيّة. ومُنع غشيان الأندية البيروتيّة للسبب نفسه الذي رحّلَت فيه فرنسا كلّ المومسات الفرنسيّات اللواتي كنّ يعملن في مواخير بيروت، حفاظًا على الكرامة الوطنيّة!

لكن فتيات الهزيع الأخير من الليل كان بينهنّ عدد كبير من الفرنسيّات، من فتيات مرسيليا، اللواتي أدرن مصالحهنّ ببراعة وهن يتنقّلن بين أحضان طلّاب الوجاهة والحشريين والجرنلجيّة. وكان اقتناء «الأوتومبيل» شرطًا ضروريًّا لزير النساء ليضمن لفت انتباه الصبايا الحسان.

ورغم إقامة الكونت كرم شاهين الموقّتة في لبنان، لكنّه كان

قد اشترى سيّارة فورد بيضاء بذريعة التنزّه البعيد.

ألماظ تحت إلحاح الكونت زارت العرّافة الفرنسيّة «مدام رولانو»، التي افتتحت في بيروت دكّانًا لقراءة الغيب ومعرفة المستقبل. وأخذت شهرتها، لأنّ المفوّض السامي كان يتردّد عليها وهناك أخبرتها العرّافة أنّها ستنجب ولدًا واحدًا، سيكون صبيًّا، وحذرتها من المياه. الكلام ذاته سمعته من عرّاف دمشق الشهير أبو خضر اليهودي.

الكونت ظلّ في لوكندة صوفر، وهو يقول جذلاً «بطن ملآن كيْف تمام»، مستفيدًا من خبرته الطويلة مع النساء.

تكفيه نظرة واحدة ليحدّد صنفهنّ، وتحديدًا تلك التي «تحبّ كلّ الرجال ما عدا زوجها»، كما كان يقول دائمًا

كلّ مساء يخبّئ شيخوخته بلباسه الكرنفالي، ويقصد النادي الاجتماعي في حيّ سرسق الفاخر لبقًا معشاقًا وفي آخر الليل يكون في أحضان الفرنسيّات وينادي «vive la france»

كان سعيدًا بانشغال زوجته عنه بزيارة الكنائس والصلاة لأجل إنجاب طفل

بينما انشغل هو بتوزيع وقته بين كأس العرَق وطاولة القمار، وطرائف الفضائح. وهناك حصل على نسخة من كتاب رجوع الشيخ إلى صباه، الذي كان يقتنيه أكثر رجال الذوات، يحبّون مطالعته قبل النوم. نسخ مصوّرة كاملة التعابير، وتكون النتيجة: لا فرق بين ستّ البيت وخادمتها

غدت ألماظ مهتمّة بالسياسة أكثر من الكونت. ولم يكن سعيدًا، وهي تردّد، مستفزّة الضبّاط الفرنسيين، بعض ما كانت تقرأه في الصحافة الفرنسيّة مثل ما كتبته «ماري هاري» في الجورنال الباريسيّة عن رحلتها إلى الشرق، حين ذهبت لتقضي أسبوعين فإذا بها تقضي ستّة أشهر (إن حِراب السنغاليين، وليست المفوّضيّة السامية، هي التي تجعل الأهالي هنا لا يذبحون الفرنسيين ويأكلونهم) الكونت كان مقتنعًا أنّ النساء اللواتي يبدين اهتمامًا بالسياسة يعانين سرًّا من نقص الحبّ والجنس، وعندما ينخرطن تمامًا بالأمر، فإنّ ذلك يعني أنّ المرأة فقدت أملها بأن تكون محبوبة وكلّ رغباتها مجابة. بدأ يفكّر جدّيًّا بضرورة إلهاء خانمه السمراء التي كانت كلّما سمعت بعائلة دمشقيّة جديدة وصلت مدينة «عاليه»، المطلّة على بيروت، هاربة من بطش القنابل، هرعت لتتسقّط آخر أخبار الثوّار، من دون أن تغادر ذهنها ملامح دمشق التي تحاول بصعوبة التأقلم مع «الترامواي» الفرنسيّة، وأسلاك الهاتف والبرق وسيّارات الرينو الفرنسيّة.

الكونت كان معنيًّا بزيارة مطعم «أبو عفيف» الكائن في ساحة البرج المشهور بتقديم أكلة الشاورما، التي زادت شعبيّتها آنذاك لأنّ المفوّض الفرنسي كان مغرمًا بها وهذا جعل المطعم ملتقى أهل الظرف والبطن والسياسة، ملتقى المرشّحين للنيابة والمستوزرين والحكّام والوزراء أنفسهم. كان الكونت مهتمًّا بالتقاط النكتة من رجال السياسة، وهم يبطرون ويلبطون، ويتصبّب على الحسان في ساحة البرج.

وحدها ألماظ، انتبهت للتغيّر الذي طرأ على بيروت، وأنّ ثمّة فنادق اختفت، في حين أُعيد إصلاح بعضها الآخر، أو تغيير وجهة استعمالها فأوتيل «بل فو» صار النادي العسكري. وبني أوتيل كونتيننتال في مكان حيّ الملاهي مع مقاهيه وصالاته السينمائيّة ومطاعمه ومسابحه

تجوّلت في المنطقة التي عَمَرت وأُفرغ فيها الردم المستخرج من المدينة القديمة، لدى شقّ الشوارع الرئيسيّة الجديدة. وزُرعت أشجار النخيل على الرصيف العريض، الذي أصبح متنزّه سكّان بيروت المفضل، وسمّي جادّة ميناء الحصن. وبعد الانتداب أصبح منتزه الفرنسيين ثم جادّة الفرنسيين، بينما أُطلق على الشارع المعروف بالطريق البروسيّة، اسم فرنسوا ـ بيكو، أوّل مفوّض سامي فرنسي في المشرق.

كذلك أصبح لكلّ الرجال عشيقات معلنات، يتأبّطن أذرع عشّاقهن في وضح النهار والسبب كان المفوّض السامي الذي كان يجالس محظيّته على مصاطب الفنادق ويظهر معها في أندية الرقص والقمار فأصبحت الخليلات موضة لا حرج عليها ومن أسرّتهنّ يبعن الوظائف والنياشين ويعقدن الصفقات.

في ١٥ تمّوز ١٩٢٦ حضرت ألماظ مع الكونت افتتاح أوّل جامع في باريس، في حيّ جيوفري سنت هيلير بناء جميل مبنيٌّ على الطراز الأندلسي. تقرّرت فكرة بنائه، يوم تعاقد سلطان المغرب مع لويس الخامس عشر محالفة وديّة تضمّنت بناء

الكنائس في المغرب، وتشييد المساجد في فرنسا وافتتح سموّ باي تونس، سيدي محمّد، الجامعَ، في حفلة حضرها رئيس جمهوريّة فرنسا، وكذلك مقهًى وحمّامًا وحانوتًا بطابع شرقيّ. وهناك في ذلك المقهى راحت ألماظ تتبّع أخبار الثوّار في وطنها، وفي الوقت نفسه تسأل عن الأطبّاء الشعبيين المغاربة الذين قد يعرفون عشبة تساعدها على الإنجاب. كانت آمالها بالحمل قد بدأت تتبخر بعد أن تجاوزت الثلاثين من عمرها بعدّة سنوات.

في أوّل أيّار من كلّ عام كانت تقصد مدينة فيشي، فتتخلّى عن البهارات والقوقعيّات واللحم المقدّد واللحم المدهن وتكتفي بتشكيلة مكوّنة من: حساء الخضر، الهندباء، الخرشوف، الفاصولياء، الملفوف، الهليون، القرع، الخيار، الخسّ، البندورة، البندق، الجوز، واللوز أمّا المشروبات فعليها أن تكتفي بماء فيشي، يضاف إليه شيء من عصير الليمون وقليل من النبيذ الأبيض حتى لا تضيع مكوّنات ماء فيشي المعدنيّة.

اختبر جسدها ماء ستّة عشر نبعًا بدرجات حرارة مختلفة. الحمّامات البخاريّة والغازيّة، والتمسيد، والمغاطس النصفيّة، ورشّاشات معويّة ومهبليّة وأنفيّة.

حدث الحمل في السنة التي نصحتها فيها صديقتها الصحفيّة «أليس» بالذهاب إلى نبع القدّيس بولس. فقصدت حمّامات «إكس ليبان» في مقاطعة «سافوا». انشغالها بضرورة إنجاب طفل قبل بلوغها الأربعين منعها من الاستمتاع بسحر بحيرة «بورجيه»، حيث قصدت قريبًا منها، ينبوع القدّيس بولس. وسألت كلّ أشكال

الاستالاكيت المدلّاة والأحجار الكلسيّة المتشكّلة إثر تقاطر المياه الكلسيّة من سقف الكهف الذي تتفجّر فيه مياه الينبوع، أن يحنّ عليها أحدٌ في السماء ويمنحها ولدًا عقب تلك الرحلة بشهرين حَمَلَت. وبتلك المناسبة أقام الكونت وليمة عشاء ضخمة. تهامس خلالها المدعوّون بمرح حول قدرات الكونت الجنسيّة! وعمّا إذا كان يحتفل بجنين من صلبه بحقّ!! فيما كان الجميع يعرف أنّه تجاوز السبعين من عمره.

* * *

«كارلوس»

لم تعرف ألماظ قطّ لماذا اختارت ذلك الاسم بالذات؟ كانت تريد اسمًا لابنها لا يذكّرها بشيء، ما من اسم يلائم قامة ذاكرتها الحزينة. تخشى من الزمن الذي يبدّل ويغيّر علينا أن نقيس الاسم قبل أن نلبسه، هكذا كانت تفكّر ألماظ.

كانت مؤمنة بتجاور النبيل والبربري فينا، ولمحت أنّ هذا الإسم فيه شيء من ذلك.

ثمّة أسماء تمتلك مداخل سرّيّة إلى أيّ محلّ «كارلوس» اسم انتشلته من متاهة الحضارات التي عرفتها اسم مكتفٍ بذاته لا يحتاج لكنية

وقتها أصرّت، بمساعدة خادماتها، على ممارسة طقوس الدمشقيّات الخاصّة بالنفساء. فعقب الولادة في اليوم التاسع،

لضمان حليب كامل للطفل، قامت ألماظ بكامل طقوس حمّام «الفَسْخ».

الحمّام، الذي ابتكرته الدمشقيّات لحالة النفاس. فدهنت بمزيج مائع كثيف القوام مكوّن من الزنجبيل والدبس وحبّة البركة، وفقست تحتها بيض دجاج مع الكمّون، وظلّت جالسة حتى تعرّقت. كانت الدمشقيّات يطلقن على ذلك المزيج اسم «الشدّاد»، لأنّه يشدّ عروق النفساء. وبعدها تحمّمت ألماظ، وكانت وجبتها مكوّنة من مرق اللحم المسلوق والمقادم. وصباح يوم الأربعين، دهنت مرّة أخرى بالشدّاد مضافًا إليه العسل، وسُقيت حليبًا مع بيض نيئ.

الطعوم الثمانية: (العذب، الملح، الدسم، الحلو، الحامض، المرّ، القابض، الحرّيف) جميعها أصبحت ألماظ مولعة بها لم يكن الكونت متأكّدًا إذا ما كان إنجاب ابنهما كارلوس حوَّلها إلى امرأة بدينة. حين كان يلمحها منهمكة بالكتابة، كان يتوقّع أنّها تحضِّر كتابًا تنافس فيه «سيمون دو بوڤوار»، حين انغمست طوال مدّة حملها بجمع كلّ ما كتبته مريانا مراش، أوّل أديبة سوريّة كتبت في الصحف، والتي اشتهرت بجرأتها في العصر الحميدي وانتقدت نساء العصر وحضّتهنّ على التمدّن الصحيح، في كلّ ما كتبت بين نثر ونظم.

كذلك ألماظ جهدت بجمع مجلّات نسائيّة عربيّة مشهورة مثل: مجلّة «الخدر» لصاحبتها عفيفة صعب، ومجلّة «فتاة الشرق»

التي رأست تحريرها لبيبة هاشم، ومجلّة «السيّدات والرجال»، ومجلّة «نور الفيحاء» لنازك العابد. كذلك لم توفر ألماظ جهدًا في جمع كلّ ما كُتب عن عائشة التيموريّة، ووردة اليازجي، ووردة الترك. وكلّ المطارحات الأدبيّة التي كانت بطلاتها نساء وشاعرات. لكن مفاجأة الكونت كانت كبيرة عندما ألّفت كتابًا باللغة الفرنسيّة عن المأكولات الشاميّة! ونقطة خلافه معها، أنّها اختلست أكلات مصريّة وعراقيّة وضمّتها للمطبخ الشامي.

«الهويّة مرض ثقافي جميل مزمن. لن نعرف ما كسبنا حتى نعرف ما خسرنا»، يقول الكونت ذلك، ساهمًا من دون انتظار رأي ألماظ، التي كانت سعيدة بكتاب لاقى نجاحًا معقولاً وغير متوقّع فاجأ الكونت.

لفتت انتباه القارئات الفرنسيّات لأسباب تسميات بعض الأكلات وأنواع الحلويات. مثل «المأمونيّة» نسبة للخليفة العبّاسي المأمون، كذلك «الهارونيّة» نسبة لهارون الرشيد، و«المتوكّليّة» التي كان مغرمًا بها المتوكّل، والناصريّة الأكلة المفضلة للملك الناصر صاحب حلب. (الخشخاشيّة، البورانيّة، الحبشيّة، الحصرميّة، الديناريّة، العجوريّة، القرنفليّة، الكامليّة، الكزبريّة، الكمّونيّة، الليمونيّة، المشمشيّة، القرنفليّة) ومن السميد والقمح والسكّر واللوز المقشّر وماء الورد يمكن لأيّة ربّة بيت أن تصنع مذاقات مختلفة، وفق وصفات ألماظ كذلك أفردت فصلاً لوصفات المأكولات التي يمكن إعدادها للنفساء. وفي حفل توقيع كتابها وزّعت حلوى «خدود الترك». كان الكونت مقتنعًا أن

ذلك كلّه بتأثير من حالة «الأمومة» التي كانت تعيشها ألماظ بإفراط مع طفل انتظرته حوالى عشرين سنة. تكوّر جسدها بسبب البدانة، واختلطت تضاريس جسدها مشكّلة من طبقات متتالية من اللحم المترهّل!

غدت تهتمّ بوليدها وبنفسها، وكأنّ العالم غير موجود. فإذا كان الطفل نائمًا فإنّها ستكون جالسة في فناء الحديقة تحت الشمس، تطلي أظافر قدميها، كاشفة عن ساقين ثخينتين، لا يشبهان ساقيْ تلك الطفلة التي رأى جسدها الناحل لأوّل مرّة على ظهر الباخرة «أوره نوف» بينما صدرها يطفح من ثوبها لم يكن يخفى عليه أنّ ألماظ غدت امرأة مكتملة

تغيّرت عاداتها تنهض صباحًا، تتناول فطورها بشهيّة كبيرة، ترتدي أفضل ملابسها، تتزيّن بكامل مجوهراتها، لم تعد الماسة الزرقاء تفارق جيدها

تكرّس أيّامًا كاملة لنتف الشعر الزائد، وتسريح شعرها، وتدليك جسدها بالكريمات. تخلّف وراءها روائح عطر مختلفة. لم تكن تثبت على رائحة محدّدة. كلّ يوم تفوح منها رائحة جديدة، بينما يترجرج لحمها الفائض تحت ثياب الموسلين البيضاء اللامعة التي كانت تحبّ ارتداءها في كلّ الأوقات.

بدأت نهاية الكونت منذ ذلك اليوم، الذي تجرّأت فيه وقالت له وهي تشاركه الفراش: «أيّ امرأة يمكنها أن تُشعر أيّ رجل باللذّة، لكن ليس أيّ رجل يمكنه فعل ذلك، قلّة هم الرجال الذين يفعلون». ذبحته تلك الكلمات، من يومها لم يدخل

غرفتها، ولم يجرؤ على جرّ امرأة أخرى إلى فراشه. انتقمت منه ألماظ ببضع كلمات، إنّها واحدة من الجرائم النظيفة من الدماء التي ترتكبها النساء بلحظة مكر مؤاتية.

لم تتغيّر البراءة التي تنضح بها ملامح وجهها امرأة تبحث عن حبّ كبير يملأ حياتها، غرفة نومها، قصرها حبّ يفيض كسيل عارم من النوافذ، طاغيًا، متأجّجًا لا ينتهي.

حالما فطمت الطفل الذي حلمت به طويلاً، انخرطت في الحياة اليوميّة الباريسيّة. تعود إلى المنزل ورائحة الشامبانيا تفوح منها، تنام بعد عدّة جولات مترنحة في المنزل أتت خلالها على أجمل خزفيّات القصر

أدرك الكونت الذي كان في عمر يسمح له برؤية الأشياء بأبعادها الحقيقيّة، وتحديدًا الحبّ، أنّ ألماظ تعاني من فوران بركان يجرّدها من طبقات متراكمة من الحزن والمخاوف والذكريات، والرغبات الهاجعة في أعماقها منذ زمن طويل عندما تأبّط ذراعها في الكنيسة ليتزوّجها، كانت تبدو هشّة مثل ضباب، بينما الآن غدت كائنًا تنهشه اللهفة للأكل والشرب والتحرّك والاندفاع، وكثيرًا ما كانت تغلق على نفسها الباب متصفحة كتبًا إيروتيكيّة مصوّرة، تدفع بها أثمانًا باهظة.

الكونت مات وهو يرقص

أصرّ على مراقصة فتاة شابّة رقصة «الفوكس تروت»

بينما كان يعتمر قبّعة طراز «بنما»، القبعة ذاتها التي ارتداها أتاتورك يومًا تحديدًا في ذلك التاريخ الذي أصدر فيه القانون الخاص باستبدال الطربوش بالقبّعة. ويحيط معصمه بساعة «تانك» التي ظهرت أوّل رسوم لها في عام ١٩١٧، تقديرًا لطواقم دبّابات الحلفاء في الحرب العالميّة الأولى وهي تحرّر باريس.

ألماظ كانت قد شكّلت عالمها الصغير في مدينة كبيرة مثل باريس من مجموعة من الصديقات: روزيت، التي تزوّجت من رسّام فرنسي يكبرها بثلاثين سنة، لأنّها ـ كما كانت تزعم لصديقاتها ـ يدلّلها لحدّ أنّه يفكّ لها رباط حذائها وهذا المقياس بالذات «ربط وفكّ رباط حذاء المرأة» كانت روزيت تقيسه بدرجة حبّ الرجل وإخلاصه، وافقتها عليه دونيا لوليا التي وصلت

باريس هاربة من الحاقدين عليها بعد عشر سنوات من الخدمة في فراش عُمْدة ساو پاولو، الذي تنحّى عن منصبه إثر فضيحة ماليّة وأُبعد عن المدينة، وهو يردّد أنّ حبيبته لوليا ستنفّذ وعدها له: ستدخل الدير وتعيش حياة الرهبنة من بعده. الجميع كان يعرف أنّ امرأة من طراز لوليا لن تخلص لأيّ رجل في العالم.

سرعان ما حاصرتها زوجته الناقمة عليها مع ابنها الذي باغت عشيقة والده السابقة وحاول قتلها وتخليصها ممّا تملك من مجوهرات. في الوقت المناسب تدخّل «رشيد الصيّاد» الفتى الذي كان قد أصبح شابًّا قويًّا يتقن أشياء كثيرة غير الضرب على «طبلته» التي أنقذته يومًا من الجوع والتشرّد.

هربا سويًّا، بعد أن قاما بجمع ما أمكنهما من أموال لوليا، وبمساعدة أحمدو ولور استطاعا مغادرة ساو پاولو بأمان.

وفي باريس، افتتحت لوليا بمعاونة روزيت محلًّا فخمًا لبيع الملابس النسائيّة، وتزوّجت من مرافقها رشيد الذي كان يصغرها بأكثر من أربع عشرة سنة. بعد سنوات كتم فيها تشهّيه السرّي لردفين ممتلئين عزف لهما زمنًا طويلاً والدليل كما كانت تهمس ضاحكة لروزيت وألماظ أنّه كان ينزع حذاءها من رجلها، وحتى يكون الأمر سريعًا تجنّبت دونيا لوليا لبس أحذية برباط.

وألماظ تحكي لهما العكس، مستشهدة بحادثة شهيرة شغلت أهل مدينة حلب طويلاً، وذلك أنّ شاه إيران، عندما زار مدينة حلب ونزل في فندق بارون، حدث أنّه كان يهمّ بمغادرة الفندق من دون أن يكون قد ربط حذاءه، فهرعت خادمة حلبيّة تعمل

بالفندق صوب الشاه وربطت له حذاءه بطريقة وجد الشاه أنّها غاية في الأناقة. فقرّر لدى مغادرته حلب عائدًا إلى وطنه أخذ الفتاة معه لأنّها بارعة بربط حذائه. وبالفعل رحلت الخادمة معه لتربط له أحذيته. كانت ألماظ تعيد رواية الحادثة التي يبدو أنّها فعلاً وقعت في عشرينيّات القرن العشرين، وتضحك بصوت عال مع روزيت ودونيا لوليا من ذرائع الرجال التي قد لا يتقبّلها عقل في سبيل الحصول على: امرأة.

وثمّة خبر بعينه أفرح ألماظ كان متعلّقًا بنادجا والبكباشي محمود: نادجا هجرت البكباشي بعد أن أخذت معها كلّ ما يملكه، وغادرته مع رجل مسلم متّجهة إلى دمشق. وحين علم أنّها باعت المنزل ومحلّ الكابات من دون علمه، وحملت المال معها وتركته وحيدًا شبه مفلس، أطلق على رأسه رصاصة وأنهى حياته.

البرنسيس «جاويدان»

من صديقات ألماظ في باريس المقرّبات، كانت البرنسيس الكرديّة «جاويدان»، التي وصلت باريس قبل عشر سنوات، لتتمكّن من الزواج بالبارون اليوناني أندرياس كلاوديوس كانت جاويدان سليلة عائلة حكمت إمارة كرديّة في كردستان. قضى العثمانيّون عليها وجيء بأغلب أفراد العائلة الحاكمة إلى اسطنبول. فتمّ نفي بعضهم وإبعادهم، وأبقوا على البعض الأكثر تأثيرًا على شعبهم، ليظلّوا تحت أنظار السلطان.

وقتها رأت حكومة الباب العالي أنّه يمكن التأثير على الأكراد عبر التقرّب من زعمائهم لتستفيد من صيتهم ونفوذهم.

فجعلت منهم ثلاثة عشر باشوات والأغلبيّة المتبقّية منهم ولاة وضبّاطًا لكن خارج كردستان، وتحت أنظار الباب العالي، الذي ما لبث أن اكتشف أنّهم لم يستكينوا، وأسّسوا جمعيّات لنشر

المعارف الكرديّة وافتتحوا بعض المدارس. فأُعيد تشتيتهم مرّة أخرى، وبقوّة، بين أنقرة وقونيّة وأدرنة وسالونيك وإسبارطة.

كانت جاويدان مخطوبة لأحد أبناء عمومتها «شرف خان»، تتيه فيه. لكنّه كان متعلّقًا بالسياسة وبالعمل على قضيّة شعبه.

ورغم الفرمان الذي أصدره الكماليّون لدى دخولهم مدينة اسطنبول، والذي ينصّ على قتل ونفي الوطنيين الأكراد، لكنّ خطيب جاويدان ظلّ يمارس العمل السرّي في اسطنبول.

حين سمعت بنبأ مقتله، وحدها جاويدان لم تصدّق ذلك. لكن بعد انتظار خمس سنوات قابلت البارون اليوناني أندرياس ووقعا في غرام بعضهما بعضًا

عندما التقيا للمرّة الأولى كان يقوم في زيارة لوطنه بعد غياب عشر سنوات في باريس، أسّس فيها مؤسّسة تجاريّة ناجحة. وعاد إلى وطنه ليلتقي عروسًا اختارتها العائلة له من دون أن يراها

لكن جاويدان خطفت قلبه، وبدورها خفقت أوردتها لأوّل مرّة بعد فقدانها لخطيبها «شرف خان» ولم تتردّد بمغادرة كنف عائلتها التي لم تصدّق خطيب ابنتهم المسيحي الذي أشهر إسلامه ليقبل أهلها بزواجهما لكنَّ شقيقا جاويدان رفضا، وظلّا مصرّين أنّ إسلام أندرياس كان شكليًّا وليس صادقًا

فلم يكن أمامها مفر، غير مرافقته إلى باريس. كانت وقتها في عمر الخامسة والعشرين. وبعد عشر سنوات، وفي السنة ذاتها

التي مات أندرياس بسكتة قلبيّة مفاجئة عاد إلى الظهور في حياتها خطيبها شرف خان، والذي تبيّن أنّه كان محتجزًا في أحد السجون التركيّة. خرج بعد سبع سنوات من السجن، وظلّ ولمدّة عامين متردّدًا بمقابلتها وعندما علم بوفاة زوجها حضر إلى باريس وسألها إذا ما كانت ترغب بالزواج به.

كان على ألماظ أن تودّع جاويدان وهي تغادر مع شرف خان إلى دمشق، حيث يمكنه هناك العمل على قضيّته بشكل مركّز وأكبر.

ابنة الدامسكو

في هذا الوقت، كانت ألماظ تمرح مع رجل تركي تعرّفت عليه في أحد فنادق موناكو، بعد أن أدمنت لعب القمار، والعيش في غرف الفنادق الفخمة، حيث غرف تسودها فوضى البروكار والريش والدانتيلا والمخمل والخرز والثياب التي غدت تشتريها بجنون وتستخدم الرقم «ثلاثة عشر» خلال اللعب، وتطلب من عشيقها التركي أن يهمس في أذنها «مدام تريس» كانت غريمتها السابقة نادجا منبوذة في غرفة مستأجرة باردة في حيّ باب توما الدمشقي، تعاني آلام المخاض. وفي الليلة ذاتها التي خسرت فيها ألماظ ماستها الزرقاء على طاولة القمار، وصدرت الصحف في اليوم التالي معلنة نبأ انتحار سيّدة سمراء بدينة بعد أن خسرت ماسة لا تقدّر بثمن على طاولة القمار. رمت بنفسها من أعلى جرف صخري يطلّ على مياه عميقة. هناك من قال إنّ الصخور

الزلقة المغطّاة بالطحالب جعلت رجلها تزلّ وتسقط من علوٍّ شاهق. أيضًا ماتت نادجا وهي تضع طفلة تبرّأ منها الأب، الرجل الذي أحبّته ورافقته إلى دمشق، ولأجله هجرت البكباشي محمود الذي أنهى حياته برصاصة بالرأس.

في مقصورة ذات مخمل ملكي أحمر، ضمّت أمير مصري وثري مغربي ودوقة إنكليزيّة، جرت لعبة القمار. عندما انتهت بعد منتصف الليل بقليل، كانت فتاة شقراء جميلة تعزف على البيانو لحن سوناتا القمر لبيتهوڤن. في الخارج كان القمر بدرًا، مكتملاً إلى حدّ مرعب، يرسل ضوءًا فضّيًا مغويًا على شاطئ صخري تصفعه الأمواج بينما ألماظ خانم كانت تمشي بخطوات هشّة. هشاشتها تبعث في نفسها حزنًا لا يُطاق. فتورها وضعفها لم يكن سببه أحد تلك التقلّبات في المزاج التي تصيب النساء كان شيئًا حادًّا يضطرب لا يمكن تسكينه بالنوم!

هل كانت بالفعل الصخور الزلقة سببًا بموتها أم أنّها الرياح الأكثر علوًّا حدّدت مصيرها؟

تلك الليلة كان صمت الأشياء رهيبًا، مثلما كانت ألماظ وحيدة تمامًا وحيدة كأيّلٍ أخير، شهد احتراق غابته الأثيرة، وظنّ أنّه لا جدوى من اقتفاء درب ما نحو غابة أخرى.

ودّعت ذلك المساء الآفل وهي ـ كما وصفتها الصحف ـ تغطّي جبينها بشريطة مخمليّة مزيّنة بزهرة بيضاء، ومرتدية ثوبًا أبيض فضفاضا منخفض الخصر، ومنتعلة حذاء أبيض مربّع الكعب.

أعطت يدها للموت بلا عودة، من دون أن تفكّر بأيّ قاع سيحظى جسدها، فقط أغمضت عينيها على أحلامها المودعة هناك منذ زمن طويل. أحلامها الصابرة والمخلصة.

قفزت من دون تردّد، بالعزم ذاته الذي قفزت فيه يومًا حوّاء من الجنّة، من دون أن تفكّر كيف يمكن لها أن تنسجم مع شبهات الأرض وشكوكها

الشيء الأكيد في لحظاتها الأخيرة كان: يقينها أنّ الموت وحده يقنع بقيّة البشر بعمق ألمها

خلّفت وراءها ماستها الأكثر بريقًا مثل نجمة ثابتة في فلك سماء أزليّة. الماسة التي وصف لمعانها ذات يوم خولين كراسنوف «مثل نجمة لا حدّ لها»

ابنة نادجا، كانت بيضاء إلى حدّ اللمعان كانت مغسولة بمطر شباطي غزير، وبصمت يتغلغل في مسامات الأشياء كلّها صمت كأنّه قادم من منفى ذاكرة الطفلة الخالية من أيّ شيء.

«برلنته» الاسم الافتراضي الذي أطلقته «صَبَاحَتْ خانُم» على ذلك الكائن المندهش من نفسه، كائن أبيض بالمطلق، ملفوف بمهد من قماش الدامسكو الأحمر، والطفلة مثل فرخ نورس سقط من عشّه على شاطئ مهجور.

عبر طيّات الدامسكو وصلت حرارة ذراعيْ صباحت إلى الطفلة، وتثاءبت بهدوء ونظرة استغراب في عينين سوداوين عادت الحياة إليها، في لحظة كان الماضي محض اسم خال من أيّ

معنى، والمستقبل مثل نهار متروك للصدفة.

الصمت يزيد من إبهامه، يتقدّم خطى صباحت خانم، ومع خطاها الوئيدة تسلّل هرّ من دون أن يموء ويمشي بخطى متناغمة مع حفيف حرير ثوب سيّدته، والمطر في الخارج يرشح ملامح جديدة على باحة الحاضر

بعد أن أخذت الطفلة الوليدة من بين ذراعيْ الخوري، الذي كان يرافق إمام الجامع القريب من منزل عدلي بك زوج صباحت خانم. أدخلت صباحت مهد الدامسكو الثقيل المتشرّب بالماء والبرودة وهي تقرأ آيه الكرسي. وعلى مائدة المطبخ فكّت لفائف الدامسكو وصباحت هانم تسأل نفسها «ترى هذه الطفلة منزوعة من ماضي من؟ لا بدّ أنّها امرأة»

الخوري جلب لعدلي بك بضع أوراق تثبت أنّ والدة الطفلة أرمنيّة اسمها نادجا، ويعرف جيرانها أنّها تُلّقب بنادجا

الطفلة فتحت عينيها إلى أقصاهما وشدّت جسدها البارد إلى أعلى وفعلت بذراعيها كذلك، وكوّرت ساقيها ونفذت رائحة بولها إلى منخري صباحت. انتزعت الطفلة أوّل ابتسامة من أمّها المقبلة والتي لن تعرف غيرها مطلقًا

الهرّ يموء مواء متقطّعًا كأنّه قادم من جرف الماضي، وفي الخارج غيمة تمطر مزيدًا من الماء، وعدلي بك يفتح باب المطبخ الموارب ويقف إلى جوار زوجته مستغربًا من ذلك الشيء الذي بين يديها ثم ينتبه إلى أنّ قماش الدامسكو قبل أن يصبح مهدًا مرتجلاً كان منجّدًا لأريكة فاخرة، وقد تمّ انتزاعه على عجل.

يقول ساهمًا «لم يجدوا شيئًا يلفّون فيه الطفلة إلّا غطاء أريكة!»

صباحت تحمّم الطفلة، ومع ساعات الصباح الأولى كانت قد تدفّأت وأصبحت مدثّرة بالصوف، وخرزة زرقاء مع كفّ من الذهب حمل اسم والدتها المتوفّاة: «برلنته»

في واجهة الزمن الغابر المغلق تقف صباحت مع ظلام حيرتها، وتهادن قلقها حول أصل طفلة وصلت إلى الكنيسة في ما بعد منتصف الليل لم يفكّر الخوري إلّا بمساعدة صديقه إمام المسجد القريب منه، ولم يحتر الشيخ حمزة كثيرًا ومعه أوائل المصلّين الواصلين إلى المسجد لأجل صلاة الصبح، إلّا بعدلي بك المحروم من الخَلَف. تلك الطفلة ستكون مسلّية للخانم.

ذلك الصباح كان مزدحمًا بجارات وقريبات صباحت خانم، الفضوليّات، بعد أن سمعن من رجالهن قصّة الطفلة التي سلّمتها الداية «أمّ جورج»، للخوري. لأنّ كلّ ما كانت تعرفه صَبَاحت عن السيّدة المستأجرة عندها أنّها مسيحيّة، ولولا الأوراق القليلة التي كانت بين أغراض الأمّ الميتة، والتي عثر الخوري بينها ما يثبت هويّة الأمّ، لكانت الطفلة لقيطة تمامًا

فقط تلك الأوراق الثبوتيّة القليلة أنقذت الطفلة من جهل مؤلم بأصلها، وعرفت أنّها ابنة لسيّدة أرمنيّة اسمها ناديا هاكوبيان كانت قادمة حديثًا من البرازيل. دلّ على ذلك ما يشبه تذكرة سفر على ظهر الباخرة «سيلڤيا» القادمة إلى ميناء بيروت في الخامس من أيلول من العام ١٩٣٨

الجزء الثاني

صباحت، كانت واحدة من أذكى وأجمل نساء دمشق.

عندما قَبِلَت أن تتزوّج عدلي بك، أحد أشهر بكوات الشام، والذي كان زير نساء، أُغرمت فيه من دون أن ترى وجهه قطّ. ذلك عندما غافلها ذات مرّة من الخلف خلال وليمة غداء ربيعيّة جمعت نساء العائلة في الغوطة. تسللّ خلفها فيما كانت تلحق أثر ساقية ماء بين أشجار الحور. كمّم فمها بيده واختلس قبلة حارة متشهّية سريعة أسفل رقبتها من الخلف. حين بغتة، وبمهارة رفع جديلتها المثقلة بليرات الذهب، وحرقت سخونة أنفاس رجل شبق أسفل عنقها، وهمس لها باسمه. غادرها من دون أن يلتفت نحوها، أو أن ترى ملامح وجهه. وبعد يومين فقط، تقدّم لخطبتها ووافقت على الاقتران بالبيك الذي يكبرها بثلاثين عامًا، مع علمها بزيجاته الأخرى. وكان ذلك الزواج هو الثالث

له، لكن من دون أن ينجب أولادًا فاشترطت عليه ألّا يتزوّج بأخرى، وألّا يلزمها بالسكنى في بيت قريب من مكان إقامة إحدى زوجاته، وألّا يبيت الزوج ليلتين خارج بيتها إذا كان موجودًا داخل دمشق من دون عذر.

صباحت اهتمّت بالطفلة ذات الشعر الأسود والبشرة البيضاء كما لو أنّها ابنتها، وكانت المفاجأة، عندما حَمَلَت صباحت وسط دهشة الجميع، وهي في عمر الثامنة والثلاثين.

أنجبت طفلة شقراء وتغيّر كلّ شيء في حياة الطفلة اللقيطة برلنته.

أوّل شيء فعلته صباحت كان انتزاع اسم الطفلة التي بلغت خمس سنوات من عمرها وكلّ من حولها يناديها برلنته، وفجأة لم يَعد اسمها كذلك. اختارت صباحت أن تسميها لطفيّة.

لطفيّة

صاحبة هذا الاسم رغم صغر سنّها، ستكره «اللُطف» دائمًا وكلّ مشتقّاته.

ماذا يهمّ لو لم توافق على انتزاع اسمها منها؟ لم يكن الأمر بيدها، لم تتخيّل قطّ أن تنتزع منها امتيازاتها كطفلة مدلّلة اسمها «برلنته» بتلك الطريقة. رغم كلّ شيء ستظلّ معجبة باسمها السالف «برلنته» اسم له حفيف وخرير. تريد اسمًا تحسّ بهبوبه نحوها!

ستحقد على اللطف، وكلّ اللطفاء، بسبب ذلك الاسم الذي ستحمله عشرين عامًا، قبل أن تكبر وتعيد ارتداء اسمها الحبيب.

«أن تعود لإسمها» سيظلّ أعز أحلامها وستذعن موقّتًا

وتحمل اسم «لطفيّة»، الاسم الذي وجدته فورًا خفيفًا يتمايل مع أدنى نسمة هواء، اسمًا مُهنْدَسًا ليظلّ لائذًا بالأزقّة الملتوية لحارات مدينة دمشق.

اسمٌ، سيظلّ دائمًا مثل مخطوط أرشيفي مرفوض وطفيلي. سيأتي يوم وتنزعه عنها بقفّازين مسمومين. في حين أنّه في عمر خمس سنوات فقط، استطاع الظلم أن يُفسح مساحة لبراغيث الضغينة، على حساب مساحة الحلم عند الفتاة فاقعة البياض. ستحمل حقدًا كبيرًا على كلّ أولئك الذي وافقوا على حرمانها من «البرلنت» أي الألماس باللغة التركيّة، واحدًا من أكثر أسماء الإناث شيوعًا في دمشق ذلك الزمن. ألماسًا افتراضيًّا وجميع النساء يردن أن يكنّ شيئًا ثمينًا ولو كان مجازًا

ستعدّ طويلاً رسائل الوقت المتناثرة.

لم يخطر في بال صباحت خانم أنّ «لطفيّة» كما أصبحوا يدعونها، الطفلة الحريريّة البياض، كرهت اسمها الآخر «لطفيّة» وجدته مثل ابتسامة بلهاء كبيرة ومسالمة. بينما أرادت هي، اسمًا غائرًا في العمق، ما من سكّين يقدر على حزّه.

أرغموها على حمل اسم أنثى تذعن لعتمة الموافقة، ولقول «نعم»

تاريخ تسميتها «لطفيّة» اقترن بتنحيتها جانبًا

وشيئًا فشيئًا أصبحت أقرب إلى خادمة، وظلًّا مهملاً للإبنة

المدلّلة والوحيدة للعائلة، التي حملت اسم جدّتها «برلنته» والتي ستحظى بكلّ شيء وبسهولة.

في حين «لطفيّة» التي جاءت في فجر ليلة ماطرة عارية مبلّلة ببولها ملفوفة بقماش الدامسكو، ستظلّ محدّقة في التقويم ومستبقة للروزنامات والأيّام.

كارلوس كرم

كارلوس الذي عاد من باريس وعمره لا يكاد يتجاوز الخمس سنوات بسبب وفاة والدته الغامضة على جرف صخري في الجنوب الفرنسي وتربّى في كنف جدّته سيزا خانم التي شلّتها المفاجأة عندما علمت أنّ ابنتها باعت كلّ أملاكها بسبب القمار وذلك عندما قصدت باريس لتعود بالطفل كارلوس، عثرت عليه مع الخادمة في منزل مستأجر في شارع ريشيلو سيزا خانم كانت جارة لعدلي بك الذي كان يعترض دائما على تربية كارلوس للحمائم التي تلوّث بذرقها صحن داره.

كارلوس كان الصديق الدائم للطفيّة. عنده مكان متّسع للحمائم، ولحزن لطفيّة التي استثمرت كلّ براءة الأطفال الممكنة لتختلس وقتًا لها، وتبكي قليلاً على كتف كارلوس الولد الهادئ الذي يرعى حمائمه، ويهمس باكيًا متأثّرًا ببؤس لطفيّة بالاسم

الذي انتزع منها «لا تبكِ برلنته»

مرّات كثيرة كانت تتسلّل إلى سطحه فقط لتسمع من يؤكّد لها أنّها لم تزل «برلنته»

لطفيّة كانت ترفض الأسماء التدجينيّة. «لطفيّة، وداد، سكينة، نسيمة، شكريّة، نديمة، وديعة، شفيفة، رفيهة، رئيفة، يُسْر، رحمة، إحسان. أسماء مسمولة العينين، اخترعها ذكور الشرق بخبث من يعرف مفعول الأسماء، ليظلّ الرجل ممسكًا بيد الأنثى أسماء قادرة على تطهيرها من احتمالات التمرّد والأسئلة والفضول.

كانت تقصّ عليه أحلامها تلك التي تراها في المنام والأخرى التي تتخيّلها في اليقظة. فيما كارلوس لم يحكِ قطّ عن أحلامه ولم يبح ولا بقصاصة حلم. وكلّما اعترضت لطفيّة رمى لها الجواب ذاته «أوصتني جدّتي ألّا أحكي عن أحلامي لأحد، لأنّ الأحلام كالأسرار عندما نفشيها نخرّبها، الأحلام تَبطل عندما نحكيها للآخرين».

حافظت على صداقتها الوحيدة في الدنيا لكارلوس الذي بدوره واظب على الانبهار ببياضها في كلّ مرّة يقرب ساعده الأسمر ـ اللون الغامق الذي ورثه عن أمّه التي ورثته بدورها عن جدّتها الهنديّة «بابور» ـ من ساعدها اللامع ويقول لها «انظري إلى نفسك في المرآة وسترين الثلج» رغم طفولته وبراءته المطلقة، في ذلك الوقت في التعامل مع لطفيّة، أدرك أنّ أهمّ

شيء تمتلكه صديقته لطفيّة كان: «البياض». ويقول لها دائمًا «أنتِ أبيض من أبيض حمائم دمشق»

كان يرافقها إلى الجامع الأموي ليشاركها نجواها وهي ترافقه إلى الكنيسة لتشعل شمع الأمنيات. كان كارلوس لا يصلّي في الكنيسة ولا في الجامع، فتسأله لطفيّة:

ـ ألن تصلّي؟

ـ الإيمان لا يحتاج إلى كلمات.

يقول كارلوس من دون إضافة.

مرّات كثيرة قرأت مسوّدات، لما كان يسمّيها كارلوس «روايات»، سرّه الصغير ذاك، لم يطلع عليه أحدًا غير لطفيّة. التي كانت تعترض على سذاجة بطلاته، فيقول لها مبرّرًا

ـ «الروايات لا تُكتب من دون نساء مغفلات، ورجال أنذال، أو العكس»

* * *

ابنة العائلة الرسميّة الشقراء «برلنته» بدأت تكبر، وتضيّق المساحة على لطفيّة التي انحسر حضورها شيئًا فشيئًا إلى المطبخ.

برلنته الصغيرة تكبر، ويزداد جمالها وتغنجها وتدلّلها وتفتّحها مع الكتب الفرنسيّة التي كانت تقرأها. فيما لطفيّة تقدّم لها

البسكويت مع مشروب الشوكولاتة الساخن. وتنظّف أحذيتها المصنوعة من الجلود الفاخرة المجلوبة من أوروبا

وكلّما تقاعد حذاء، صار من نصيب قدميّ لطفيّة التي تتحمّل لطف صباحت، المنمّق تجاهها، وهي تحتال على حزن لطفيّة، وتقول لها بمناسبة وغير مناسبة: «برلنته بمقام شقيقتك الصغرى»

فيما يصرّ الحزن ويكبر مع لطفيّة، ومع الوقت أصبح واحدًا من تقاسيم وجهها

ومع كلّ يوم يتعزّز كرهها لـ «اللطف»، كرهت «لطف» الخانم الصغيرة الشقراء «برلنته» المبالغ فيه نحوها وهي تعطيها وقتًا طويلاً لتعليمها أحرف اللغة الفرنسيّة، وتشرح لها مبادئ النحو في اللغة العربيّة. ألم يخرجوها من المدرسة لتتعلّم أصول الطبخ والتنظيف والكوي وتصفيف الشعر؟ لتلبّي كلّ متطلّبات من كانوا يصرّون على تسميتها بـ «شقيقتها»؟

كانت كلّ يوم تقابل مرآة برلنته الشقراء، واقفة وراء شلّال من الشعر الذهبي تزرعه بالدبابيس، وتكوي أطرافه لتخرج برلنته إلى مدرستها بأجمل طلّة ممكنة. ولدى عودتها تستنفر أناملها، وكامل حَذَرها، وهي تنزع الدبابيس الكثيرة من شعر برلنته. تسرّحه بأصابعها ذاتها التي تداعب بها قطّتها «سمسم»، الهرّة التي أصرّت على ملازمة «لطفيّة» رغم محاولات صباحت اليائسة بإبعاد تلك القطّة التي تشبه كلّ القطط ـ «يميّزها شيء واحد أنّها قطّتي أنا!!» كما كانت تقول لطفيّة لكارلوس.

وكان الله في عون العصفور الشارد تحت ضوء شمس الصبح، والحمامة التي أمنت هدوء الزهر، والفأر الذي يتّسع جحره لبراثن «سمسم» قطّة لطفيّة.

كارلوس بحكم علاقته الوطيدة مع الحمائم كان يكره القطط ويقول لها «القطط كائنات أنانيّة» تجيبه لطفيّة من دون تردّد. «أحبّ ما يشبهني»

بوتان

بوتان ابن البرنسيس جاويدان أيضا كان الجار المفضل لكارلوس ولطفيّة في الحارة. بوتان عينان بلون بندقي، تحدّقان نحو الأسطح، وفوق السطح قليلاً حيث عالم الحمائم. الفتى الجميل «بوتان شرف خان» كان يحبّ شيئين الحمائم والسياسة، وثمّة شيء ثالث يعشقه سرًّا برلنته الشقراء زميلته في المدرسة. كانا ـ تقريبًا ـ أجمل اثنين في المدرسة بوتان وبرلنته، «يشبهان العسل لحلاوتهما» كما كانت تقول المدرّسات.

في ذلك الوقت (النصف الأوّل من الخمسينيّات) بعد خروج الفرنسيين بقليل، كانت دمشق قد شرّعت بوّاباتها ونوافذها للتحرّر، وأصبح الاختلاط ممكنًا جدًّا في أغلب مدارس المدينة المحافظة، عبر التاريخ

كارلوس كان يقول لبوتان «الحبّ ما يُرى بأمّ العين وما

يُلمس لمس اليد» فيردّ بوتان متهكّمًا «قل لي يا شاطر وماذا لمست بيدك من جسد صديقتك لطفيّة البيضاء أم أنّها تضربك إذا ما حاولت ذلك؟!»

ينهي بوتان كلامه، من دون أن يتوقّع جوابًا من صديقه الصموت. ويتابعان عصر الليمون وإضافته للماء الذي تشرب منه حمائم كارلوس.

كارلوس وبوتان: جمعهما حبّ تربية الحمائم، وفتاتان تعيشان في منزل واحد كأختين لكنّهما ليستا كذلك.

لطفيّة أصبحت تواظب على زيارة الكنائس مع كارلوس، بعد أن علمت أنّها وُلدت لأمّ مسيحيّة. تفعل ذلك سرًّا، وغالبًا ما ينضمّ إليهما بوتان ليتحرّى ما يمكن أن يعرفه عن برلنته الشقراء، من لطفيّة التي فطنت تمامًا لمشاعر بوتان تجاه برلنته. وفي كلّ مرّة تكرّر له: «لن يسمحوا لك بالزواج منها، لا تملك مالاً يكفي لطموحات صباحت خانم أيّها الأمير الجميل» لم تكن لطفيّة تنعته بالأمير مجازًا بالفعل كان بوتان كذلك بشكل أو آخر بوتان، اسم يحمل تاريخًا مرضوضًا بالخيانات.

«بوتان»، اسم لإمارة كرديّة يعود تاريخها إلى «١٢٤٧ م»، تأسّست في جزيرة بوتان المعروفة من قبل الأكراد أو (جزيرة بن عمرو) كما ورد ذكرها في تواريخ العرب، ومدينة الجزيرة من المدن الكرديّة القديمة وهي عاصمة الإمارة البوتانيّة.

كان بوتان شرف خان، مثلما يعشق برلنته سرًّا، يحمل أيضًا كامل تاريخه الذي يعتبره شخصيًّا ولم يكن يتداوله مع أحد. لكنّه

يحفظ التاريخ بحذافيره:

كان يعرف أنّ اسمه لا بدّ مرتبط بحاكم جزيرة بوتان «شرف خان بن عبد العزيز»، الذي حكم في سنة ١٥٨٥ م وبنى المدرسة الحمراء، أوّل مدرسة كرديّة تبنى في هذه الجزيرة. وفي عشرينيّات القرن التاسع عشر، تقلّد الأمير بدرخان ابن الأمير عبدال خان، مقاليد الحكم عقب أبيه وجدّه.

وكان عمره آنذاك ثمانية عشر عامًا أيضًا آخر أمراء بوتان، على تراب كردستان.

وعندما أدرك العثمانيّون أنّ حلم هذا الأمير «كردستان الكبرى»، كان لا بدّ من مواجهته، ولهذا تقابل الجيشان العثماني والكردي قرب «أورميّة»، ونشب قتال عنيف لم تحسم نهايته لصالح الأتراك رغم خيانة الأمير يزدان شير ابن عمّ قائد بوتان طامعًا بحكم الإمارة.

وبعد ثمانية أشهر من الحروب، خطرت للعثمانيين حيلة: أرسلوا حملة عسكريّة تتقدّمها الآيات القرآنيّة مكتوبة بالخطّ العريض، لأنّ العثمانيين كانوا يعلمون أنّ الأكراد مسلمون لا يقتربون من الآيات القرآنيّة احترامًا للدين الحنيف. وانطلت الخدعة وتبعثر الجيش الكردي، وأُسر أمير بوتان. ومن الآستانة نفي إلى جزيرة كريت. وفي النهاية، سمح له السلطان بالذهاب إلى الشام لقضاء المتبقّي من حياته هناك. وفي عام ١٨٧٠، حلّ ضيفًا على مقبرة الشيخ خالد النقشبندي، في حيّ الأكراد بدمشق، وقد نُقش على قبره هذه العبارة (أمير جزيرة بوتان، أمير بدرخان

أزيرزان رحمة الله عليه وعلى آله ١٢٨٦ هـ)

كان بوتان متحدّرًا من العائلات الكرديّة تحديدًا البكوات والأغوات والولاة والضبّاط، تمّ تفكيكهم بإصرار وبعثرتهم بين منافي بعيدة وكثيرة خوفًا من تجمعهم مرّة ثانية، فتوزّعوا بين مصر واليونان وألبانيا وتركيا وسوريا

أكثر ما سيذكره بوتان عن مراهقته مشاعره الجارفة تجاه برلنته الشقراء، والكسور التي عانى منها والكدمات المختلفة التي غطّت جسده عندما اكتشف أهل برلنته غرام ابنتهم ببوتان.

خطيبها مراد بك، أرسل شابّين بعضلات مفتولة لتلقين بوتان درسًا دسمًا لا ينساه وبالفعل، يومها رضخ لنصيبه، واقتلع برعم «أمل» صغيرًا وخجولاً ومتواضعًا كان قد بدأ يكبر، مفاده أنّه «سيحظى بحبيبته ويهرب بها بعيدًا عن أهلها» ظلّ لثلاثة أسابيع ممدّدًا في فراشه، مستوحشًا، تنهره لطفيّة وتستنكر مظهر «الأبله» الذي اتّخذه عقب الحادثة. كان كارلوس أكثر رأفة به من لطفيّة.

وبرّر لها حال بوتان قائلاً

ـ «عندما نحبّ يكفينا مكان منزو عادي. لنفرح أو نحزن فيه، وحيدين مثل جبل معتد، تنهشه الريح.

وبوتان يهمس ساخرًا لكارلوس

ـ «هذه الفتاة البيضاء. إنّها أكثر واقعيّة منّا، إنّها شرسة كقطّة لا في الحقيقة كأفعى لم يكن يجرؤ أيّ من بوتان وكارلوس على مخالفتها فيما تقول. عندما شُفي بوتان،

اجتاحت لطفيّة غرفته متقدّمة كارلوس المذعن الأزلي لما تقوله وما تفعله، ورمت مغلّفًا ملفوفًا على شكل هديّة، وفتحت خزانة بوتان الذي يأخذ مظهر المستسلم. وكان هذا أكثر ما يغيظها، رمت بوجهه بنطلونًا أسود وطلبت منه أن يرتدي القميص الأبيض الذي اشترته له كهديّة شفائه.

بعد أقلّ من ساعة كان الثلاثة ينتصبون أمام عدسة أشهر مصوّر أرمني في دمشق: في تلك الصورة بدا بوتان فتًى جميلاً يجهل الأمل، وكارلوس حائرًا مع نسبة من البريق العادي في عينيه لا تزيد ولا تنقص، ولطفيّة تموّه بصعوبة فرطًا من العاطفة تجاه أحد ما

تلك الصورة بنسخها الثلاث ستزيّن واحدة منها مكتب كارلوس طوال عشرين سنة في بيونس أيريس، ونسخة أخرى ستتنقّل بين محفظة بوتان، وجيوبه، وجدران الغرف المتواضعة والفقيرة في أغلب الأوقات، والمتعدّدة، التي استأجرها خلال تنقلّه المرير من حلم إلى حلم، وعندما يقبع كارلوس في سجن بيونس أيريس مدّة ثلاث سنوات ستكون الصورة بين أغراضه القليلة في حقيبة صغيرة ترافقه وهو يخرج من السجن.

والنسخة الثالثة ستكون مرافقة لجواز السفر الذي ستستخدمه لطفيّة كثيرًا خلال حياتها القادمة والصاخبة. والذي وحده يثبت أنّ اسمها «لطفيّة» وليس «برلنت» كما ستدّعي دائمًا

مراد بك

لم تصدّق ما فعلته يومها وهي تنفذ ما يطلبه منها بإذعان. كانت قد دخلت لتأخذ فناجين القهوة الفارغة من غرفة الاستقبال، حيث كان مراد بك خطيب برلنته الشقراء، يرتشف الرشفة الأخيرة من فنجانه. لم يسمح لها بالمغادرة، وهو يعلم أنّ خطيبته في الأعلى تتحضّر للخروج برفقته، بينما الوقت هو وقت قيلولة الأب والأمّ.

جعلها تحسر ثوبها عن فخذيها كاشفة عن بياض ممتلئ فتّاك، فيما عيناها هلعتان مسمّرتان على النافذة خوفًا من أن يباغتهما أحد. حينما سمعت ضوضاء بالخارج، أنزلت ثوبها لكنّه أصرّ عليها بعينين متوسّلتين وبإيماءة ملحّة من كلا يديه لرفع ثوبها مجدّدًا حسرت هذه المرّة أكثر، بينما هو يمرّر يديه بين ساقيه، وكلّما ارتفع ثوبها ازدادت حركة يديه سرعة وتوتّرًا،

وبلحظة مباغتة قرّبها منه بنفاد صبر أكثر، وبإحدى يديه حَسر الثوب بحركة عصبيّة متشهّية إلى حدّ الانفجار، ويده الثانية تمعن بعصر أحد ثدييها لم تعلم كيف وصلت أصابعه إلى هناك، وعندما فغر فمه وضاقت عيناه وصغرتا وهو يتأوّه ويكزّ على أسنانه، شعرت بالخوف والدهشة. أنزلت الثوب، وعلى عجل أخذت الفناجين الفارغة صوب المطبخ قبل أن تراها برلنته، التي نزلت من غرفتها لتوّها لاستقبال خطيبها الذي كان في ذلك الوقت يصفق وراءه باب الحمّام.

لمحته لمحًا، من نافذة المطبخ لدى دخوله إلى صالة الاستقبال. أكيد أنّ الحبّ أعمى، لكنّه مع لطفيّة كان أكثر من أعمى، كان صاعقًا بَرَحَ بها الحبّ. وأصبح مراد بك بطلاً لكلّ أحلام يقظتها ومنامها كانت تعرف أنّه دخل البيت ليكون عريسًا للخانم الصغيرة التي بلغت لتوّها السابعة عشرة، فيما لطفيّة كانت قد قاربت الثالثة والعشرين من عمرها، منسيّة في أعمال المنزل اليوميّة. حتى جاءها مراد بك، وانغرز تمامًا في قلبها، ورغباتها، وخيالها

«أأنتِ شجاعة بما يكفي؟» بغتة سألها مراد بك، بصوت أملس خافت، ونظرات زاحفة متشهّية.

لم يخطر في بالها أن يبادر بمحادثتها بتلك البساطة، عندما دخلت ذات مرّة لحمل فناجين القهوة الفارغة. فيما جَفَلَ قلبها الملآن حبًّا وتشهّيًا وحسرة. قال لها بصوت هامس: «من أين

لكِ كلّ هذا البياض؟ هل طليت نفسك بالأبيض؟».

لم تفطن إلى خطّته: كان في المرّات اللاحقة يتجاهلها، خلال ذلك، استنفر كلّ خيمياءاتها الكامنة، وحوّلها إلى غريزة خام، تشرئبّ، تكتسحها كحمّى يوميّة، تُرهقها، تجعلها تسبّه وتشتمه متسائلة متى سيحدّد موعد اللقاء؟ ما الذي ينتظره؟

لم تعد تحتمل سماع صوته، من دون أن تنهض كلّ طاقاتها الجهنميّة المتوارية في الأسفل، حيث سخونة مؤلمة وتيّار غامض يسري فيها، من أصابع قدميها مارًّا بكلّ أنحاء جسدها

حين طلب لقاءها، كان على يقين بأنّ دمها توحّش، وأنّه أمسك بذلك الشيء الحلو الخافق في صدرها وحدس فرط صبابتها!

حينما غادرت البيت، متّجهة صوب موعدها الغرامي الأوّل، كان ذلك حصيلة يومين من ملازمة المرآة، ويومين من الاستحمام والنتف وتسريح الشعر

أنهكها وجهها لكثر ما شاهدته بالمرآة وتفحّصته. وجسدها يشاطرها الإنهاك حين انهارت نائمة، أمام المرآة، بانتظار صباح اليوم الموعود.

حين تعب القلب، هوسًا، يأسًا، تحمّسا، أملاً

رمى لها زمانًا ومكانًا لتلاقيه هناك. لم يكن دافعها إلى موافاته خواء في الحياة وحسب، ولكن هي رغبتها الجهنميّة

المكبوتة. وقتها لم تعي أنّها مخلوق شَبِق إلّا وهي تحلّق لذّة، ثم تلوذ بحضن الرجل كقطّة متوحّشة هدأت موقّتًا

يومها، وفيرًا، تذوّقت لذّة القبل والعناق المحموم. حتى تلقّت ذلك التقلّص في قاع بطنها، فيما مراد يخترق كلّ سطوحها السفلى. يتنهّد، ويضيع، ويسقط فوقها، وهو غارقٌ في ارتعاشة لذّة منحته إيّاها بلحظة مبلّلة بكلّ دموعها القادمة كأنّها ترنو إليه من عمق وادٍ، وعيناه تطلّان من جبل شاهق، استسلمت كحيوان يختلج في وهدةٍ، ظنّ أنّه سيتخطّاها إذا ما قفز فيما الصيّاد يتأمّله من علٍ وبدورها أخيرًا، كانت «المتوحّشة» التي خرجت من الغابة، وقد أشبعت رغبة براثنها بالتمزيق، أنشبت مخالبها بعنق شيء لذيذ. شيء طاردته طويلاً من دون أن يعلم تمام العلم بأمر تشهّيها عن بعد. وعن قرب، عرفت معنى التعبير البشري عن فش الغلّ، وشربت من دمه. حقًّا لا نفرغ بغضنا من بربريّتنا المتجذرة في العمق، إلّا حين نتبادل التهشيم، التقبيل. وجرّبت متعة تذوّق دم أحد مشتهى. إنّها متعة ستكون فقط بين أسنانها وإلى الأبد. تدرّبت على متعة شرب دم من تحبّ ومن تكره ومن تنقم عليه.

النقمة هي نعمة لغضبنا، وإلّا كيف نتخلّص منه؟ كيف ننسى الغضب من دون نكهة لحم ما أو قلب ما تنزرع بين أسناننا؟ هكذا ستفكّر لطفيّة دائمًا حتى عندما تتحوّل إلى برلنته وتستعيد اسمها.

انهال عليها بكلمات حنونة، تلقّتها موجعة، مستسلمة، نصف ميتة، نصف حيّة. كان في عينيه بريق عينيْ صيّاد يحصي عدد ضحاياه من العصافير ولزمت هي صمتًا مطبقًا

لبثت الوقت كلّه مذهولة، التقت أخيرًا بنفسها كمهزومة عرفت عن قرب معنى أن نتبادل نكهات دمائنا مع من نشتهي، لكن ذلك كان شعورًا موقّتًا بالانتصار قبل أن يتناساها مراد بك.

كمثل وريقة طُويت، تركها، تجاهلها لم تره بعدها إلّا ليلة زفافه متأبّطًا ذراع برلنته الشقراء.

غضبت من دون أن تحظى بشرف البكاء. جمدت كمومياء قبعت لقرون طويلة في تابوتها أرادت أن تذوب، أن تموت، أن تندثر، أو تنسحب إلى كلّ الزوايا الخفيّة. قضت أيّامًا متورّمة بالأسى، نزيلة جهنم والندم. منتظرة انتهاء شهر العسل وعودة العروسين من باريس.

حتى إحدى أهمّ مواهب النساء الجهنميّة: البكاء، لم تحظ به.

تعاني من كرهٍ لمن تحبّ. تحوّل فمها إلى شقّ جافّ. تمامًا حالها كان مثل حال بوتان. جفّ هو الآخر وحبس نفسه بين الحمائم بذريعة الاعتناء بها لم يكن سهلاً على بوتان التغلّب على حلمه ببرلنته الشقراء.

كارلوس لجأ إلى العطّارين في سوق مدحت باشا، ودس أغرب الوصفات في ما يقدّمه لبوتان ولطفيّة التي أفرغت ذات مرّة

كلّ ما في معدتها بسبب خلطة من الطحالب البحريّة خلطها كارلوس بمغلي الملّيسة. جعل لطفيّة تشرب المغلي بناء على نصيحة أحد العطّارين الذي وصف له نوعًا خاصًا من الطحالب زعم أنّه يقوّي الأعصاب.

لم تستطع أن تقول شيئًا لكارلوس الذي أخبرها أنّها تبدو كمن نشف دمه. لا دم لها أوردتها مليئة فقط بالأسف. فقط قالت بصوت بالكاد بدا مسموعًا إنّها حزينة على فَقدِ قطّتها سمسم، التي كانت قد اختفت فعلاً من دون أن تعرف شيئًا عن مصيرها

لطفيّة، شغلت نفسها برغبة واحدة: أن تنحشر في زحمة الشوارع مع ومضة عناد شعثاء في عينيها أمدّتها بإحساس مبهم ومقوّ فضّلت المشي في الأسواق. أرادت أن توزّع غضبها على البشر حولها، أو لعلّ الألم يضيّعها وسط زحمة الناس، فيلحق بأحد آخر غيرها وكثيرًا ما كانت تنضمّ لبضع نساء وفتيان يراقبون لعبة كرة القدم في ملعب صغير جدًّا مرماه ليس إلّا جدارًا لنهاية حارة مغلقة.

«أحلى ما في الملاعب أنّها غير محكومة بالطرقات». ألحّت على بالها تلك العبارة التي كان يقولها دائمًا بوتان مبرّرًا غرامه بلعبة كرة القدم مرّات كثيرة راقبتْهما كارلوس وبوتان، وهما يلعبان تلك اللعبة، التي لم تفهم سرّ تعلّق الشباب بها.

خلال الزيارة الأولى للعروسين العائدين لتوّهما من أوروبا للمنزل، وعقب انتهاء الغداء، دخلت لطفيّة مع القهوة الساخنة بوجه متنمّر، ثائر، بركاني، مستنزف، وبتوتّر حيوان مطعون. سكبت على مراد القهوة، وسط اندهاش الجميع. لم تخف من أحد. خلعت «الإيشارب» عن رأسها، ورمته في وجه صباحت، يستحثّها وجع طويل.

خرجت من المنزل نهائيًّا لحقت بها صباحت تناديها بحنق: «لطفيّة» جاوبتها بوجه شاحب كالرخام وعينين مليئتين بالضغينة والتحدّي. «اسمي برلنته من فضلك» وصفقت الباب وراءها، كمن خرج من كهف.

واصلت طريقها كصيحة وجدت نفسها تنضمّ إلى جمهور صغير من المراهقين، يراقبون مباراة كرة قدم على الملعب الممسوخ المرتجل على عجل في فسحة فارغة في نهاية الحارة المسدودة، تطلّ عليه بيوت قديمة، على بعض شرفاتها جلست نسوة عجائز يحتسين الشاي ويدخّن السجائر يراقبن اللعبة، من دون اكتراث حقيقي.

فيما كلّ كرة تحيا حياتها، وكلّ كرة تموت موتها فجأة أحبّت تلك اللعبة، واقتنعت بما قاله كارلوس ذات مرّة: «أحبّ الكرة لأنّها تعتنق مبدأ الطرقات تُخلق.

أيضًا كان دائمًا يقول «الكرة خائنة كما الحياة تمامًا، إذا لم نبادلها الخيانة بخيانة ستركلنا خارج كلّ الملاعب المحتملة. .

الكرة تحلّق كما يفعل السعداء، الكرة تطيش كما يفعل العشّاق، ثاقبة كما الحزن، خاطفة كما القدر، ملساء كما الزمن، كالذكريات تروح وتجيء، وكالآمال تعود دائمًا

كارلوس وضع الهدف الذي حسم اللعبة، وعانق بوتان الذي كان مدمنًا على أن يكون قلب الدفاع. هرعا صوب صديقتهما، وكارلوس يقول لها مستعرضًا «جميل أن ننتصر، ولا مانع من الانهزام، لكنّني أكره التعادل. أكره أن أعلّق آمالي على وقت ضائع، تقتلني اللحظات الأخيرة التي تجعل كلّ الكرات شجاعة وطائشة وصائبة وخائبة وأخيرًا تشقّ النهاية هدفها بدقّة تامّة ويشهق المرمى موتًا فيما الهدف يمزّق قلبه.

لطفيّة لاذت بحضن سيزا خانم، حالما غادرت منزل عدلي بك. استضافتها جدّة كارلوس برحابة صدر، سمحت لها أن تشاركها غرفة نومها

مرّت عدّة أشهر وهي تقضي لياليها على بعد عدّة أمتار من كارلوس الذي تؤرّقه شهواته المكبوتة نحوها، بينما هي تتجاهل نظراته بقسوة. تغادر كلّ يوم تقريبًا وتعود مساء مرهقة من المشي لم تكن تعرف ماذا تريد أن تفعل في حياتها العمل الوحيد الذي عثرت عليه كان مضحكًا للغاية بنظر كارلوس: مكيّسة بحمّام السوق، أي تفرك أجساد النساء في الحمّام.

كارلوس عارضها بشدّة عندما أصرّت على التخلّص من

اسمها «لطفيّة» وانتحال اسم «برلنته»، لكنّها أصرّت وأصبحت من جديد «برلنته»

سخر منها بشكل جدّي عندما قبلت العمل بحمّام السوق، وقال لها إنّ اسمها الجديد «برلنت» لا يمكن أن تحمله مكيّسة.

لم تلق بالاً لملاحظات كارلوس، كانت سعيدة بالبقشيش والأجر الذي تتلقّاه، بحيث يمكنها أن تعود مساء إلى المنزل، وهي تحمل معها شيئًا يؤكل تقدّمه لمطبخ سيزا خانم الكريمة، والتي لم تكن تنتظر شيئًا مطلقًا مقابل استضافتها لبرلنت.

برلنت أحبّت ذلك القصر المهلهل الذي لحقه تشويه التقسيم، حين اقتُطعتْ منه بعض الأجزاء. فتحوّل إلى ثلاثة منازل تؤجّرها سيزا خانم. مرّت عدّة شهور وهي راضية موقّتًا ومستسلمة لقدرها، ومتجاهلة رغبات كارلوس المتأجّجة نحوها

سيزا خانم التي لاحظت شغف كارلوس بالفتاة اكتفت بأن تنظر إلى صورة لابنتها الراحلة ألماظ، وأن تقول له الحبّ العنيف من طرف واحد ينتهي بقتلنا ولم تنس أن تحذره من عشق امرأة جميلة كبرلنت، لأنّها «ستكون امرأة هفواتها أكثر من فضائلها بكثير

ذات مساء قبّلها عنوة، قبلة حارّة محمومة متفجّرة، تلقّتها برلنت بهدوء وكأنّها كانت تتوقّع تلك اللحظة، لكن دونما أيّ حماس يُذكر في تلك الليلة لم يحظ كارلوس من محبوبته البيضاء بأكثر من تلك القبلة المسروقة. انسحبت وهي تقول

محذرة: «بدأنا صداقتنا ونحن صغار، نضحك ونلهو، فلِمَ ننسفها بالخيبة»

برلنت حزمت أغراضها، وقرّرت أن تقبل عرض الست فضيلة.

فقط ثمّة امتحان صغير كان عليها أن تخوضه لتحظى بالشقّة وسيّارة الدودج.

الامتحان يقتصر على أن تقف عارية، تمامًا، مع أربع فتيات غيرها ـ مثل مباريات الجمال ـ لكنّ القماش ممنوع، لأنّه تدليس مرفوض من قِبل المشتري!

يجلس ذلك الثري يدخّن سيجاره ويشرب نبيذه ويراقب أجمل خمس فتيات عثرت عليهنّ الست «فضيلة» وهي تجوب حمّامات دمشق وتعاني من جفاف مزمن ببشرتها، لأنّها كلّ يوم تستحمّ وتندس كزبونة في أحد الحمّامات العريقة. وهناك تستكشف أجمل الأجساد العارية. وتنتقي الأجساد التي تضمن أنّها تُرضي ذائقة المشتري.

يقفن إلى الحائط، وبوقت واحد يمشين إلى الأمام. بضع خطوات. يعبرن من أمامه. ثم يستدرن. ويعدن. إلى الحائط. ولأنّ «المؤخّرة» أهمّ جزء عنده، فإنّه خلال رحلة العودة يكون قد انتقى أفضل خلفيّتين.

تخرج ثلاث فتيات من المنافسة ويبقى اثنتان. يُعدن الكَرّة،

بضع خطوات للأمام. ثم إلى الخلف. عندها يكون قد انتقى خليلته لمدّة عام.

الرجال. !! كم يتوقون للحم أنتجه يومًا ضلعهم الأعوج!

مثلما كانت المعرفة مكلفة، يوم حوّاء أُطعمت الثمرة المحرّمة لآدم، فعرفا أنّهما عاريان، فسترا جسديهما والعكس أيضًا صعب ومكلف.

كان عليها أن تمشي عارية في منافسة على جيوب رجل.

لأجل قلبه ربّما لا تخلع كلّ ثيابها لكن لأجل ماله تفعل لهذا مشت لطفيّة عارية، خاضت ماراتون حوّاء الأشهر، من دون خجل. لأنّها ستعرف لاحقًا لكلّ شيء عورة: للتاريخ والسياسة والمجتمعات. مشت على الماضي النائم لكلّ أنثى عربيّة عاملها التاريخ دائمًا بوصفها تابو والتابو، عادة مقدّس، لذيذٌ انتهاكه.

رائعٌ أنّها «تابو» يمشي على رجلين تحت ضوء ثريّات من الذهب في قصر ليس ببعيد عن الشام

لم تفكّر بشيء عندما وقفت بين الفتيات تقاسمهن العريّ التامّ.

مشت معهن بوصفها تابو وجنابة! بوصفها الموديل التاريخي: الجارية، الأمَة، المحظيّة، السريّة. مشت لقاء ثَمَن. بين تمييع المدّنس وتنحية المقدّس. كزهرة غواية بلا جذر.

واختارها هي وتحوّلت إلى كائن من أرداف. أتى وقت تناطح فيه العالم بجسدها عرفت الوطء عن كثب. أرداف مستعدّة للّيونة، للانسجام، والتنسيق مع أعضاءالآخر

ويدان تحسنان التواصل، النقلات السريعة والبطيئة. كلّ ليلة عليها أن تتحوّل إلى عسل. تخضّبت بالحنّاء بناء على رغبته! رقصت وهي تموء كقطّة بناء على رغبته! لم يعد يذهلها اكتشافها المضطرد لبهلوانيّة مشاعرها، التي أصبحت تعيها لم تتخيّل نفسها يومًا أنّها تمتلك روحًا تشبه روح أولئك الذين يؤدّون ألعاب خفّة، يقنعون من حولهم أنّها السحر بعينه «إذا كان مقدّرًا لي أن أكون بهلوانة أقنعة في يوم ما، فعليّ أن أفعل ذلك بأصول وإلّا فإنّني سأكون بهلوانة عابرة. وهذا ما لا أرضاه لنفسي. بذلك الإصرار فكّرت.

كلّما فكّرت بمراد بك تذكّرت شيئًا قاله كارلوس «على العاشق أن يرحل أو يموت» مختلسًا تلك العبارة من أحد الكتب الكثيرة التي كان يقرأها ولأنّه ليس بمقدورها أن تموت. ولا تفكّر بذلك مطلقًا فقد اعتمدت قاعدة جديدة: فليموتوا جميعهم. إلّا أنا

لم يفلح كارلوس بإقناع أحد من موظّفيّ المحافظة بأنّه ليس إقطاعيًّا بالمطلق. أن لا أملاك لديه، غير محلّ تجاري صغير في سوق الحميديّة يستثمره مستأجر في بيع السجّاد منذ أكثر من

ثلاثين سنة، مقابل مبلغ زهيد للغاية. والمنزل الواسع الذي كان قصرًا في السابق، وتمّ تشويهه بجدران إسمنتيّة قبيحة ليحوي عدّة مستأجرين. أي بناءً متهالكًا لن يستفيد منه «الشعب». فقط اكتفى بشتم الشيوعيّة، والاشتراكيّة، وصيصانها الكثيرة التي تجرّها وراءها

بوتان، اعترض على قرار صديقه كارلوس ببيع مسدّس صغير ومزيّن بالفضّة. حملته يومًا أمّه ألماظ خانم في محفظتها اليدويّة لتستخدمه في قتل نفسها إذا تعرّضت لحادث خلال تجوالها في البرازيل

وكلا الإثنين بوتان ولطفيّة ـ التي أصبح اسمها برلنت، تشاركا الذهول مع كارلوس بتلك المجموعة من الأواني النحاسيّة والفضّيّة والبسط الصوفيّة، التي عثروا عليها مصادفة في أقبية المنزل بعد وفاة جدّته بأيّام قليلة!

برزت أسئلة كثيرة حول مجمل ماضي أمّه في باريس، وهو ينقّب في قبو المنزل عمّا يمكن أن يبيعه ويستفيد من ثمنه في سداد تكاليف السفر إلى الكويت للعمل هناك!

الأوراق التي عثروا عليها بين بقيّة الأغراض، والتي أصرّ بوتان على ترجمتها عند ترجمان محلّف، أكّدت أنّ والدة كارلوس الراحلة تمتلك عقارات مختلفة في ساو پاولو بالبرازيل

احتدمت الأسئلة أكثر وهو يعثر على الصناديق التي تحوي أشياء مختلفة: خزفيّات صينيّة فاخرة، مصابيح، مكاحل، مرايا

مؤطّرة بالموزاييك. وثمّة قماشة من الدامسكو بيضاء خالصة تتميّز برسمة العاشق والمعشوق كانت بين الأغراض، والتي عادت لتروّج مجدّدًا عقب سريان إشاعة بين سيّدات دمشق عن قطعة مماثلة، أرسلها رئيس البلاد «شكري القوتلي» كهديّة لملكة بريطانيا بمناسبة زفافها وقيل إنّ الملكة فصّلت ثوب عرسها منها فقط تلك القطعة نجت من البيع، فقد أهداها كارلوس لبرلنت على أمل أن تُفرحها بعدما أبدت إعجابها بها

الثلاثة، وقفوا مسمّرين أمام صورة لسيّدة شابّة نحيلة واضحة التقاطيع، ترتدي ثيابًا أوروبيّة، وتحيط كتفيها بما بدا شالاً شرقي الطراز تقف بين مجموعة هائلة من الكائنات الصامتة، تشكيلة من رؤوس حيوانات محنّطة، جميلة. رؤوس لكائنات مقتولة. هناك من صاد كلّ تلك الغزلان والوعول والأيائل ليبقي على الجزء المتكبّر فيها قرونها المخروطيّة الجاهزة لمواجهة أيّ عدوّ محتمل بقلب الغابة. حيوانات لم تعد خطرًا على أحد، وقد فُصلت عن أجسادها، وحُبست في قاعة دمشقيّة!

بدا في تلك الصورة نمرٌ مرقّطٌ بكامل جسده وجماله الخطير ورأس زرافة حازّ على يمين الصورة، والواضح أنّه كان الحيوان المحنّط الأقرب للمصوّر الذي التقط الصورة. برلنت قلّبت الصورة بفضول كبير من دون أن تعثر على ما يدلّ على شيء. فقط كارلوس قال بهدوء وحزن: «أمّي!»

برلنت قالت كمن وجد شيئًا «منزل حسين أيبش.. لا بدّ أن

يكون كذلك، سمعتُ كثيرًا عن تلك المجموعة من صباحت خانم وعدلي بك. كان مولعًا بالصيد ولأجل متعته هذه رافق أميرًا مصريًّا إلى أفريقيا والهند، في رحلات لأجل الصيد. وحصيلة تلك الرحلات من رؤوس الحيوانات المحنّطة جمعها في قاعة كبيرة في منزله»

ثمّة صور لمتنزّه على شفير نهر بردى بدا فيه واضحًا أنّ عدد النساء تجاوز عدد الرجال، قالت برلنت معلّقة على الصورة: «يلعبن الباصرة والبرجيس وعلى أكل وشرب وقهوة وتتن.
تداولت أيدي الأصدقاء الثلاثة تلك الأشياء بفضول واندهاش

بطاقة بريديّة دعائيّة لبانسيون ڤيكتوريا في شارع شاتوبريان في بيروت، وبطاقة أخرى عليها صورة التكيّة السليمانيّة، وأخرى عليها صورة سماء غائمة، تصطخب تحتها أمواج متكسّرة على شاطئ صخري، وقارب يقف عليه رجلان، ووراءهما بناء كبير يضمّ طاولات وكراسٍ. كُتب على البطاقة قهوة البحري عام ١٩٠٦ بيروت. بصعوبة أخفى كارلوس عن صديقيه شيئًا كان يراه لأوّل مرّة، عثر عليه فجأة: صورة على ظهرها كتب بالفرنسيّة «مطعم شيه فرانسي»

وفي كلّ مرّة، يحاول مجدّدًا سبر أغوار نظرة امرأة تريد أن تظلّ لغزًا، مع الكثير من الرفق ـ ربّما ـ أضفاه شعرها المسحوب إلى الوراء تمامًا مع قرطين من اللؤلؤ في تلك الصورة بالذات كان يمكنه أن يتخيّلها رقيقة، ثمينة، كان يرفض أيّ تأويل

ضحل محتمل يمكن أن توحي به تلك الصورة، بسبب ذراع الرجل المنمّق الملامح تحيط كتفيْ أمّه بالذات.

في عينيها، قرأ ابنها الشغف. وفي عينيَ الرجل قرأ التعسّف.

هل يمكن للمرء أن يكون سعيدًا وفاضلاً في الوقت نفسه؟ كان يسأل كارلوس نفسه، ليبرّر أمّه على طريقته الخاصّة المنسجمة مع قناعاتٍ لم يغيّرها أبدًا في حياته، مثل الطيّبون تعساء، والأشرار سعداء ومثل أفكار كثيرة أخرى اختبأت في رأسه.

برلنت كانت مستاءة من ميول بوتان «اليساريّة»، وهو يلصق تهمة الطبقيّة بكلّ ما حوله كان يتفحّص عِقْدًا من الذهب وأحجار الفيروز، أحاط بعنق برلنت المتباهية بأشيائها الجديدة، التي أثارت ارتياب صديقيها وهما يتساءلان عن غيابها الغامض وحضورها المفاجئ. وفي كلّ مرّة تزداد جمالاً وأناقة، وتمتلئ حقيبة يدها الصغيرة بالمزيد من النقود. ويردّد بوتان همسًا لكارلوس «بالفعل لم تعد لطفيّة، إنّها حقًّا برلنت»!

برلنت تقول عن حجارة عقدها «حجارة كريمة»، وبوتان يسخر ويزيح الحديث على طريقته: «البشر في ظنّهم أنّ الطبيعة تشبههم. فثمّة أحجار شبه كريمة، وأخرى كريمة، وأحجار لا تقدّر بثمن. وأحجار مجّانيّة متاحة للجميع. ههههه!! إسقاطات بشريّة سخيفة وحسب. نوهم أنفسنا أنّ العالم يزخر مروءة:

الصقر طائر نبيل، والنسر كائن سامّ، ثمّة طبقيّة ألصقناها بالعالم عن عمد. نمنح الشرف للجبال العالية، ونمتهن القيعان. نمنح الكرامة للنمور والأسود، ونحرم الفئران منها!!»

كارلوس يعترض ويقول: «نمنح السموّ لتلك الأشياء التي لا تمنحنا نفسها بسهولة، لهذا لا توجد الأحجار الكريمة إلّا قريبًا من فوهات البراهين. نهوى تلك الأشياء التي لا تسلّمنا نفسها إلّا مقهورة، لهذا إصرارنا على ضعضعة الأرض بمعاولنا لاكتشاف صخور مزهوّة برقائق الذهب. لتزهو بها امرأة متباهية»

برلنت كانت واعية إلى أنّ بوتان اعتنق الشيوعيّة، لأنّه حُرِمَ من برلنته الشقراء. كلّ الشبّان المفلسين أصبحوا يلتهمون الأدب الروسي وينتمون لحزب يساري بغاية التعويض عن جيوبهم الفارغة وما أغبى الفتيات اللواتي يغرمن بشابّ فقط لأنّه يحفظ بعض الأبيات الشعريّة! برلنت تردّد ذلك. وكارلوس يصمت ويخبّئ أشعاره بعيدًا عن متناول يدها، بينما يغني لها كلّما التقاها أغنية إيف مونتان les feuilles mortes أوراق الخريف. بينما هي بمظهرها الجديد، ثيابها، حذائها، عطرها، والأهمّ من هذا كلّه سيّارتها التي أصبحت حديث الحيّ، وأوّلهم صباحت خانم التي كانت تصمت أمام تلميحات جيرانها عن سرّ الازدهار الذي تعيشه لطفيّة التي أصبح الكلّ يناديها «برلنت»

عندما حذرها كارلوس من أقاويل الناس عنها، هزئت،

وقالت: «هكذا هم البشر معظمهم يصنفون أنفسهم كملائكة مهمّتها التحدّث عن الفضائل طوال الوقت. أنا شخصيًّا اخترت تنفيذ ما هو الأسوأ من وجهة نظر الملائكة. ما يهمّني وجهة نظري أنا تشعل سيجارتها من دون أن تلقي بالاً للمارّة في الشارع حيث تقف أمام بوّابة منزل كارلوس، وتتابع بتحدّ كبير «لن أكون من أولئك الناس الذين يضيّعون وقتهم وحياتهم في إطلاق الأحكام على البشر، لا وقت لديّ لسماع الكلام ذاته الذي يردّده القبيحون عن الجميلين»

وعندما أخبرها أنّه لن يكون سعيدًا إلّا إذا كان قريبًا منها، شرحت له كأستاذة عتيقة، أنّنا عندما نضع الشروط لن نكون سعداء، السعادة ستعثر على دربها السرّي نحونا فقط إذا ما أخلينا لها كلّ المسالك من الشروط المسبقة. هكذا فقط نلتقي بسعادتنا الخاصّة، التي وجدت لأجلنا

وعندما سألها عن مخطّطاتها المستقبليّة، أعلنت له بكلّ ثقة: «المستقبل هو فضاء فارغ بالنسبة لي. كلّ ما هنالك إيماءات كثيرة تنتظر أن ألبّي بعضها لم أقرّر بعد. لهذا لا تنتظرني. لأنّي سأغامر، ومتع المغامرة في تناسُب أزلي مخيف مع القلق. وأنا مستعدّة للقلق في سبيل مغامرتي»

سمعها كارلوس، وفي سرّه علم أنّ برلنت هذه ستكون مصدرًا لكلّ الآلام التي يحتاجها أيّ حبّ ليكبر، وأنّها ستتسبّب بأخطاء مميتة سيرتكبها بغباء واستسلام مُطلق إذا ما ظلّ في

دمشق، فقرّر أن يغادر مدينته حتى لا يعاني من رؤية جمال تلك الفراشة، التي راحت تتنقّل بين الورد من دون أيّ تحفظات. لقد خرجت من الشرنقة إلى الأبد.

بوتان حظي من الحزب بمنحة دراسيّة بجامعة لومومبا في موسكو

برلنت ضحكت من اسم لومومبا، وبوتان شرح بإسهاب عن لومومبا المواطن الأفريقي البسيط الذي اشتهر في سماء الحرِّيّة كبطل محرّر لبلاده «الكونغو»، من طراز سيمون بوليفار وجيفارا «ومن هم هؤلاء؟» تسأل برلنت باستعلاء. أيضًا شرح المزيد حول أبطاله المفضّلين، لكنّها لم تكترث، فقط قالت باستخفاف «ماتوا؟! لماذا؟! لأجل من!؟ أنا لن أموت من أجل أيّ شيء في العالم، لن أضحّي بنفسي تحت لافتة حبّ الوطن أو الوفاء للوطن سخافات! تصمت قليلاً ثم تتابع «ليس هنالك وطن أو أرض في العالم يمكن أن أضحّي بحياتي لأجله» بوتان قال لها بكلّ هدوء لكن هؤلاء ماتوا من أجل حلمهم أن يموتوا البعض يخلقون وهم يحلمون بالموت لهذا هم يموتون»

بوتان مثل كلّ الذين كانوا يشعرون بالاضطهاد، تمسَّك بالاشتراكيّة، وودّع صديقه كارلوس الذي عدل عن فكرة السفر إلى الكويت، وقرّر أن يغادر متّجهًا إلى ساو پاولو، بحثًا عن

أملاك أمّه، ألماظ خانم.

بوتان، غادر دمشق وهو يحمل حقيبة ثيابه وفي جيبٍ أثير قريب من قلبه ثمّة بضعة أشياء «قطعة قديمة لعملة كرديّة كُتب على وجهها الأوّل أمير بوتان بدرخان، وعلى الوجه الثاني كُتب ١٢٥٨ هجري. وقطعة أخرى أحدث قليلاً من الأولى: ميداليّة سكّها العثمانيّون عقب أسر أمير بوتان تمجيدًا لنصرهم. على وجهها الأوّل نُقشت عبارة «حرب كردستان»، وعلى الوجه الثاني صورة جبل تقوم عليه قلعة هي قلعة «أوروخ» التي تحصّن فيها أمير بوتان.

وصورة جماعيّة التقطت في باحة المدرسة الثانويّة. تبدو فيها برلنته الشقراء قريبة منه، التي اقتنص منها قبلة سريعة شغوفة أكثر ما يميّزها نداوة حشائش تنمو أعقاب فصل ميت.

بوتان حمل معه طعم تلك القبلة بفضلها عرف كيف يمكن للقدر أن يهدّدنا بقبلة. قد تكون لقيطة، قاصرة، يتيمة، ابنة لا أحد. نقابلها في منتصف الطريق. لثوان عابرة فيها تنطلق شياطينها وملائكتها في اللحظة ذاتها

كنشّال ذكي يندس الحبّ معنا حين ندرك نهائيًّا أنّ أجمل القبل هي: المختلسة على عجل أو على مهل أو على غفلة. فلتكن مسروقة هكذا يومها حكى كارلوس لبوتان عقب القبلة اليتيمة التي اختلسها كارلوس من برلنت، قبل أن يحفظ طعم

شفتيها بين أغراضه القليلة، التي احتوتها حقيبته الصغيرة وهو يغادر دمشق متّجهًا إلى ساو پاولو ولسنوات طويلة ستغذّي ذكرى تلك القبلة كلّ أحلامه وأرقه. لأنّه ليس من أولئك البشر الذين يعتنقون مبدأ ينبغي أن نحبّ بعقل، إنّما كان من أبناء المنطق المضادّ تمامًا ينبغي أن نحبّ بشغف.

بِرْلَنتْ..

«تمشين ذاهلة عن كلّ ما حولك، وفي الوقت نفسه متيقّظة، تمشين بطريقة غريبة» هكذا كان كارلوس يقول لها عندما يراها قادمة من بعيد، من شارع مدحت باشا، متّجهة صوب منزله حيث اعتاد الوقوف مع بوتان أمام الباب، لتشاركهما شرب «المتّة» ـ العشبة التي بدأت تروج في كلّ أنحاء سوريا، قادمة مع المهاجرين العائدين على متن بواخر تبحر من القارّة الأميركيّة اللاتينيّة.

تذكّرتْه، وهي تتنقّل مشيًا بين كافيتريا الهيلتون وكازينو عابدين في القاهرة. أرادت أن ترى بنفسها وتستمتع بالانطباع الذي تخلّفه حولها بينما تمشي في الشارع بثياب من ماركات مشهورة.

تخيّلت لو أنّ كارلوس كان قريبًا منها، ربّما سينفي أنّ

مشيتنا تحدّد ملامحنا، أو الثياب التي نرتديها إنّها أشياء أخرى تفعل ذلك.

رافقت زوجها «العُرْفي» الموقّت في رحلة صيد إلى الجنوب وعاد معه ٧٦ بطّة، اصطادها في يوم واحد. وفي عزبته بالقرب من هرم سقارة، أكلت مع المدعوّين البطّ المشوي، وشاهدت معهم رقص الخيول العربيّة، كما راقبت لعبة الكروكيت في نادي المعادي

ولأنّه يثق بذوقها، فقد جعلها تشرف على انتقاء الأثاث الفاخر لتحمله فيما بعد طائرتا «داكوتا» قامتا بنقل الموبيليا التي اشتراها من دمياط لقصوره في السعوديّة.

رغم أنّها كانت قد تجاوزت السابعة والعشرين، قلّدها عقد من لؤلؤ البحرين وقبّلها، وهو يقول لها مبروك عيد ميلادك الثاني والعشرين، وعقبال عيد ميلادك الواحد والعشرين

برلنت، جعلت عيد مولدها متحرّكًا، متنقّلاً وتعمّدت أن تجعله يوافق يومَ عيد ميلاد إمبراطورة إيران فرح ديبا لكنّها لم تُعجب بدرّاجة «الفسبا» التي قدّمها الشاه لزوجته، التي بدت فرحة كالأطفال بدرّاجتها الجديدة. لكنّها أُعجبت به لأنّه يقدّم لها الزهور في اليوم مرّتين.

أصبحت تتردّد كثيرًا على مطعم كابري بعمارة ريڤولي في القاهرة، لأنّها سمعت أنّ رشدي أباظة يتردّد إلى هناك كثيرًا وحين صادفته أخيرًا، استطاعت أن تلتقط معه صورة تذكاريّة وهي

تحيط عنقها بستّة صفوف من اللآلئ البيضاء المنسجمة مع فستانها الأبيض، وتسريحة «نفرتيتي» التي كانت سائدة في ذلك الوقت.

خسرت مبالغ كبيرة خلال فترة أدمنت فيها على مراهنات سباق الخيل في نادي «الجزيرة»، لكن ذلك لم يمنع أنّها كانت تستأجر اللنش في «الغردقة» بعشرة جنيهات للجولة الواحدة مخلّفة وراءها رائحة عطر «موغيه» المطابق لرائحة زنبق الوادي. وحدها كانت تمتلك أنفًا يميّز بين رائحة زنبق الجبل وزنبق الوادي.

تقول إنّ روائح زهور الجبال طائشة، تفترسها أدنى هبّة هواء وتحملها أنّى شاءت بينما عطر الزهور التي تنبت في بطون الوديان: تنسلّ. وتنزف من أنف الأرض مباشرة، جالبة معها رائحة البراكين النائمة والزلازل المتأهّبة، معتّقة بالصبر والانتظار، آتية من أقصى نهايات الأرض، من الرحم إلى العالم، ولا تفوح بفوضى. إنّما تسدَّد مسارها، وتتّجه وتحطّ بثقة على مفاصل حواسّ «الآخر»!

لعبت الغولف في «رأس غارب» على البحر الأحمر، وعندما تعرّفت على الرجل الجديد كانت ترتدي فستانًا أسود، صدره مقفول والظهر مفتوح، ينتهي تحت خصرها بزهرة بيضاء.

في الصيف استبدلت أثاث شقّتها المؤجّرة، في أحد أحياء دمشق الراقية، بأثاث من خيزران وقشّ وبامبو، وزيّنت جدران منزلها بلوحات الأوب آرت المعتمد على فنّ المساحات الهندسيّة

المتداخلة، والتي لم تعجبها مطلقًا، لكنّها الموضة، كما برّرت لضيوفها

في السابق لم تكن مقتنعة بجمالها أن نكون جميلين بنظر أنفسنا أوّلاً، هذه الصنعة لا نعرفها بالكامل أبدًا، لأنّه لا يمكن لأحد تعليمها لنا فإمّا أن نحبّ أنفسنا أو العكس. برلنت أخيرًا أصبحت معجبة بنفسها تعرف أنّها فردوسٌ للعينين.

سلمى بيدرو الحدّاد

بدا كارلوس، رجلاً مكتملاً، ناضجًا، فيما يتأبّط ذراع زوجته سلمى.

في يوم احتفلت الجالية السوريّة في بيونس أيريس بتدشين جدار رائع من ألواح خزف قاشاني يعود تاريخها إلى القرن السادس عشر يُقال إنّ فريق الحرفيين الذي اشتغلها هو ذاته الفريق الذي رمّم قبّة الصخرة في القدس، وزيّن التكيّة السليمانيّة التي شيّدت على ضفّة بردى في دمشق، من أجل الزوّار الذين اعتادوا التخييم في البساتين المطلّة على طول النهر

البلاطات التي شكّلت على الجدار لوحة خزفيّة مذهلة التكوين، اشتراها أحد أثرياء الجالية هو «روسندو أيّوب»، الذي كان أوّل متحدّر عربي يصل إلى البرلمان الوطني الأرجنتيني اشتراها، وتبرّع بها للنادي السوري.

وعلى شرف تلك «البلاطات» أُقيم حفل استقبال باذخ، موّله كارلوس بتشجيع من سلمى بيدرو الحدّاد. ابنة الدّون بيدرو جميل حدّاد، المتحدّر من أصل عربي، ابن مقاطعة لاباتاغونيا، المغرم بالسياسة.

بيدرو جميل الحدّاد، كان مثل غالبيّة السوريين في ذلك الوقت: انسحب من الحزب الراديكالي وانضمّ إلى الحزب البيروني.

وقد ساهم بتأسيس نقابة الصحافة السوريّة في الأرجنتين.

كانت الجريدة السوريّة اللبنانيّة قد احتفت بثورة يوليو وتأميم قناة السويس. وخصّصت مقالات طويلة عن القضيّة الفلسطينيّة. كتب الكثير منها كارلوس شاهين. قبل أن يتعرّف بالآنسة سلمى.

كارلوس رأى سلمى للمرّة الثانية، في الكنيسة الأرثوذوكسيّة في ساو پاولو، حيث يجتمع المتحدّرون من أصول عربيّة، للاستماع إلى مواعظ رجال الكنيسة الداعية للتآخي بين العرب في قاعة يظهر بها رمز الهلال معانقًا الصليب.

سلمى، حضرت من الأرجنتين برفقة والدها إلى البرازيل، تحديدًا إلى ساو پاولو، المدينة التي تضجّ بالسوريين واللبنانيين.

بيدرو الحدّاد كان يواظب على حضور تلك الحفلات، لعلّه يعثر على عريس من أصول عربيّة لابنته سلمى التي تعلّمت اللغة العربيّة، بسبب حرص أبيها الشديد على أن تتكلّم لغة الوطن

سلمى، كانت شابّة سمراء، بقامة قصيرة، وشعر أجعد. لولا

عيناها الجميلتان بأهدابهما المتثنّية للأعلى لعُدّت قبيحة! لم يتوقّع أنّه سيُعجب بأنثى تحمل مواصفات مخالفة تمامًا لبرلنت أو لطفيّة.

لكنَّ ثمّة شيئًا لم يفهمه جذبه في تلك الفتاة التي تشبه غالب المتحدّرات من أصل إسباني أو إيطالي، اللواتي تزوّج بهن كثرٌ من المهاجرين العرب. وأخيرًا فطن إلى أنّ صدى ضحكة سلمى يكاد يتطابق مع صدى ضحكة برلنت.

كارلوس، نال إعجاب الآنسة «سلمى» الفتاة التي تربّت في كنف جدّها جورج حدّاد، الذي أنشأ جريدة قبل أكثر من خمسين سنة. وقتها قام بجولة في مختلف الولايات لإقناع المهاجرين بالاشتراك فيها لكن معظم المهاجرين كانوا من الأميين وأنصاف الأميين لم يحصل على أكثر من أربعمائة اكتتابًا لاحقًا باعها بما قيمته خمسمائة بيسو كان عدد صفحاتها لا يتجاوز الأربع تصدر بشكل غير منتظم، وتحرّر بلغة أقرب للعامِّيّة منها للعربيّة الفصحى.

كانت عائلتها من بين تلك العائلات التي علّقت صور جمال عبد الناصر في منازلهم ونواديهم شقيقاها حملا اسميْ جمال وناصر اسمان انتشرا بين الجاليات العربيّة بكثرة، فيما ساهم والدها بيدرو حدّاد بتأسيس نقابة الصحافة السوريّة في الأرجنتين، في وقت حرصت فيه إذاعة «روساريو» على تخصيص جزء من بثّها لتغطية كلّ ما يحدث في الشرق الأوسط

بيدرو حدّاد والد سلمى، كان معجبًا بكارلوس لأسباب

كثيرة، منها، كما خمّن كارلوس نفسه، التقدّم في السنّ الذي يخلق لدى الإنسان نوعًا حادًّا من الفضول حول جذوره. وهذا ما كان في الغالب يحدث مع المتحدّرين من أصول عربيّة.

بيدرو حدّاد كان يتكلّم العربيّة، ويكتبها وابنته سلمى كذلك.

كارلوس، الذي قصد ساو پاولو ليحصل على إرث أمّه هناك، لم يحظَ بشيء! فالعنوان الوحيد الذي لم يتغيّر كان عنوان منزل: أحمدو ولور.

ساعده الزوجان على العمل كمدرّس، وبالكاد يحصل على ما يسدّ رمقه. عمل مدرّسًا للغة العربيّة. يعطي حصّة في اللغة العربيّة الدارجة لحوالى سبعين تلميذًا (١٠ بالمئة منهم فقط من أصل عربي).

أيضًا، استطاع كتابة بضع مقالات بأجور معقولة، في جرائد عربيّة، دأبت على تغطية شجارات طائفيّة صغيرة، في وقت لم تنجُ فيه الجرائد الأكثر انتشارًا والتي تصدر بحروف عربيّة ولاتينيّة من النزاعات الطائفيّة المتكرّرة، حيث كانت ثمّة إعلانات تتّسم بتعصّب ديني لتحريك مشاعر المهاجرين وضغائن الماضي.

وبمساعدة والد زوجته المتحمّس له، حصل كارلوس على قرض مالي من البنك السوري ـ اللبناني، الذي عمل منذ بداية تأسيسه في منتصف الثلاثينيّات على تسهيل تقديم القروض لكلّ العرب الراغبين في الاستثمار في مجال الصناعة.

كانت أحلام كارلوس متعلّقة بمعمل النسيج الذي سهر على نجاحه طيلة خمس سنوات، حتى استطاع أن يتأبّط ذراع زوجته ويدخلا بفخر إلى مقرّ البنك السوري اللبناني وقد سدّدا القرض بالكامل!

وأكثر من ذلك، فقد شربا نخب منتجات معمله التي غدت من معروضات مقرّ البنك، الذي كان يقيم معرضا دائمًا للسلع، التي يتمّ إنتاجها من طرف معامل ذات رأسمال عربي النسيج الذي تنتجه تلك المعامل منذ الخمسينيّات، عُدّ منافسًا لجودة النسيج الإنكليزي، الذي لم يعد يجد له سوقًا في الأرجنتين بوجود صناعة النسيج التي يحتكرها العرب واليهود المهاجرين من البلاد العربيّة.

روشان شير..

تبدو ساهمة، بهذا فقط كانت تشبه برلنته الشقراء إبنة صباحت خانم. التقاها لأوّل مرّة في قسم الأرشيف في جامعة لومومبا ـ الجامعة الروسيّة للصداقة بين الشعوب. كانت تلك الجامعة اسمًا على مسمّى، إذ إنّ أهمّ ما يميّزها التنوّع في قوميّات الطلّاب، حيث يوجد طلّاب ومتدرّبون ينتمون لما يزيد عن أربعمائة قوميّة مختلفة من العالم، جاؤوا من أكثر من مئة وأربعين دولة.

لمدّة أربع سنوات قضاها بوتان في غرفة من الوحدات السكنيّة الطلّابيّة في جامعة لومومبا، تذوّق خلالها طعم أجساد لفتيات جئن من مختلف بقاع العالم. في سنته الأولى، أحبّ فتاة من نيبال، وفي السنة الثانية، كانت محبوبته فتاة سمراء بالغة الطول من قيرقيزيا، في سنته الثالثة، أعجبته فتاة سوداء من ناميبيا،

وفي السنة الرابعة، رافق فتاة تحمل أجمل عينين سوداوين يمكن للمرء أن يراهما، كانت من كازاخستان.

لكن عندما التقى بروشان شير، تغيّرت كلّ حياته وهدأ قلبه.

استغرب أنّه لم يلمحها قبلاً رغم أنّها تسكن في وحدة سكنيّة قريبة من حيث يسكن، وكلّ يوم تعبر شارع ميكلوخو ـ ماكلايا، حيث مطاعم متنوّعة. كلّ قوميّة لها مطبخها ومطعمها

إذن هي مثله مهووسة بالماضي، تنقّب فيه، تحفره. إنّها كرديّة مثله.

اسمها، روشان شير، ابتسم عندما عرّفته باسمها، كانت من أكراد أذربيجان، ومغرمة بمدينة دمشق التي لم ترها أبدًا، لكنّها سمعت عنها في حكايا ألف ليلة وليلة.

بوتان يروي لها حكايا أخرى عن مدينة اسمها دمشق، تشبه تلك المدينة في ألف ليلة وليلة إلى حدّ كبير هكذا أسر لبّ الفتاة التي كانت زميلته في الدراسة. حكى لها عن دمشق: مساجدها وتكاياها، أضرحتها، وأسواقها، وحاراتها وعندما سألته إذا ما كان قد عشق يومًا فتاة دمشقيّة؟ أجابها بابتسامة هانئة ومستسلمة: نعم. روشان كانت ابنة لواحد من الأكراد الذين يعدّون بالآلاف الذين ساقهم ستالين إلى مختلف الجبهات الروسيّة. مات الكثير منهم، لكنَّ والد روشان كان بطلاً قلّدته الحكومة السوفييتيّة عدّة أوسمة ونياشين. وعندما تكلّم ذات يوم على حقيقة عدد الأكراد الذين قُتِلوا وهم يدافعون عن روسيا، اختفى. ولم يُعرف عنه شيء.

برلنت.. الشام.. مراد

مراد بك، ذات يوم تشاطرت معه أمرًا واحدًا لذّة عارمة، عقبها ندمٌ ساخطٌ سوداويٌّ غيّر حياتها

كان لا بدّ أن تستثنيه، موقّتًا، فتحت له الباب على وسعه. وهي تعرف أنّ الكراهيّة أكثر أشكال الحبّ عنفًا لم تنس قطّ من دفعها لأن تتّبعَ قاعدةً واحدة في حياتها أن تكون أكثر خفاء وتدلّلاً ومغايرة. منحها الكراهية اللازمة لتؤجّج إرادتها، تعترف لنفسها أنّ الكراهية كانت دائمًا الحافز الذي تأقلمت معه. بحيث أصبح يشبه الحبّ.

مراد بك الذي زاد ثراؤه أضعافًا مضاعفة بعد وفاة عدلي بك، طَرَقَ باب بيتها أخيرًا، مع باقة ورد حمراء كبيرة، وقرطين من اللؤلؤ الأبيض.

تسأله بجدّيّة. «هل أنا جميلة؟»

يجيبها بعينين ذاهلتين «أنتِ جميلة كالخمرة: تثمل شاربها وناظرها»، حان وقت تذوّق عسل الانتقام.

أصبحت تعرف جيّدًا أنّ للعسل أنواعًا عسل للشفاء من داء مزمن، وعسل يفتن، يجب أن يكون المرء له صاحيًا، وعسل مقابل لذّته هنالك تنازل لصالح الغرائز

تعترف لنفسها أنّها لم تعش لحظة مثل تلك اللحظات التي كانت تحياها، وهي تراقبه من نافذة المطبخ لدى دخوله قاعة الاستقبال، قبل سنوات طويلة. لاحقًا عندما قرأت كثيرًا، عرفت أنّ ذلك الذي تسمّيه اللغة «خفق الجوانح» شيء معادل للسعادة، لكنّه ليس السعادة!

كانت تريد لمراد بك أن يُطمس ويُخنق. لحظتها انتصبت مشاعرها ضدّ بعضها بعضًا، تذكّرت جيّدًا ما علّمتها إيّاه الحياة مرغمة أن تختلق قلبًا مستبدًّا مضادًّا، ليعرقل ويدمّر مشاعر تجعلها تظهر ضعيفة أمام الآخرين

بعد قصّتها مع مراد، لم تسمح لقلبها أن ينفعل مستقلًّا اعتادت أن تكبحه وتكبّله. لم تسمح لقلبها بالعفرتة قطّ، عقب تلك الليلة مع مراد بك. لحظتها أدركت كم انتزع منها عفويّتها، وكلّ احتمالات الوقوع بالغرام

كانت مدركة أنّ قناعتها بشأن مشاعر الشوق والحاجة لآخر، ليست إلّا انحطاطًا مذلًّا، قناعة دفاعيّة خاطئة ارتدتها رغمًا عنها،

من دون أن تنتبه أنّها خسرت بالمقابل: الحبّ.

لم تخفِ احتفاءها الظافر بمراد بك، ووعيها بكرْهٍ قديم لبرلنته الشقراء الصغيرة. كره لضفائرها التي قضت ساعات صباحيّة طويلة في تصفيفها رغمًا عنها، تابعت ممارسة ذلك السلوك المدهش الذي يتقنه الكارهون الحاقدون بفخر من دون مراجعة.

استقبلته بذراعين ساخنين واستحوذت عليه كما لو كان شيئًا تملكه، ثم ضاع منها

منذ زمن قديم، يُجمع الفلاسفة والحكماء والأديان على أنّ الكره «جُبْن»، وبرلنت متيقّنة من ذلك، لكنّها لطالما مارسته أحيانًا بلذّة.

كانت ملاحظته الوحيدة: «لا زلتِ تحبّين القطط»، قالها وهو يغادر عتبة منزلها متلمّظًا بقبلة ساخنة أخذها منها وهي تودّعه، وبين يديها قطّة بيضاء حديثة الولادة.

وقتها صمتت، ولم تقل له إنّ القطط تحبّ المجوهرات الثمينة لتزيّن براثنها، وأصبحت تعرف كيف تقرأ حسابها المصرفي، وكلّ تلك الأوراق التي تثبت امتلاكها البيوت والعقارات.

تعرف أنّها مدانة سلفًا بجرم اقتراف الحبّ وقت تشاء. وتلملم أحزانها مثلما تهرب القطّة بصغارها تحملها بين أسنانها الواحد تلو الآخر، وبلامبالاة طفلة تتسلّق شجرة حبّها، وتعرف

أنّ الحبّ خيار لا عودة عنه، كالقتل.

* * *

تحت شمس الربيع جلست برلنت في سيّارتها المكشوفة لتراقب ڤيلّا صباحت خانم، تستجمع شجاعتها لزيارة تحضّرت لها سنوات طويلة.

كانت تنفث دخان سيجارتها وتتابع بعينيها حركة صباحت خانم المنهمكة بتدخين سيجارة أيضًا، وهي تجلس على كرسيٍّ متحرّك.

صباحت خانم أزالت جميع عتبات ڤيلّا بلودان، حتى يتاح لها التنقّل بين ردهات وشرفات الڤيلّا، على مقعدها ذي العجلات. لم تكن لتفوّت على نفسها التمتّع بغلال المشمش والكرز في البساتين المحيطة بالڤيلّا

عن بعد، رأت برلنت سيّارة الفورد المكشوفة تقبع في حديقة الڤيلّا، بدت مهجورة ولم تتحرّك منذ سنين!

ربّما لم ينس بعدُ أهل دمشق تلك السيّدة الشقراء المتشاوفة التي تعتمر برنيطتها كملكة، ولا تتخلّى عن سيجارتها وهي تقود سيّارتها بسرعة هائلة.

كانت صباحت تتشمّس باسترخاء هرّة مسنّة، يغطّي رأسها غطاء أبيض يصل إلى كتفيها، تحت شجرة سنديان ضخمة.

أيضًا، إلى جوار سيّارة الفورد، لمحت برلنت عربة الكارو التي كانت تقودها الخيول. صباحت احتفظت بها منذ أيّام شبابها

في حديقة الڤيلّا لم تجرؤ برلنت على عبور بوّابة الڤيلّا، وأقلعت عن فكرة إلقاء التحيّة. لم تمنحها ثيابُ إيڤ سان لوران أو حقيبةُ الشانيل الجرأةَ التي أرادتها لمواجهة سيّدتها السابقة. فقط اعترفت بحزن، لنفسها أنّ الكراهيّة شحذت إرادتها أكثر ممّا فعل الحبّ.

قادت سيّارتها، من دون أن تكمل مشوارها، من دون أن تلتفت إلى الوراء، حيث على كرسيّ متحرّك تجلس تلك المرأة المتغطرسة التي رفضت أن يُطلق اسم والدتها على فتاة لقيطة. عقب تلك الزيارة غير المكتملة، بأسبوع واحد، قرأت برلنت نبأ نعيها على جدران جادّات كثيرة في دمشق. ماتت صباحت، بعد أن بيّنت في وصيّتها أن يُقام سبيل ماء باسمها

ابنتها برلنته الشقراء وزّعت صدقات بمئات الليرات، وذبحت الذبائح ووزع لحمها على الفقراء، واستدعت ثلاثة وثلاثين من حفظة القرآن المشهورين وجعلتهم يتلون القرآن كاملاً حتى الصباح وأقرأت عليها الصلوات لثلاثة أيّام، وفي الأربعين أحيت مولدًا على روحها

كان الجميع يتحدّث عن الخانم العجوز، التي كانت قد أودعت جملة من ثرواتها الهائلة قيد الاستثمار الآمن في أوروبا كلّ تلك الثروة، مضافة لثروة عدلي بك، ستكون من نصيب برلنته الشقراء، التي كانت قد أنجبت في ذلك الوقت ولدًا واحدًا لمراد بك الذي عرفته دمشق كزير نساء شهير

برلنته الشقراء

لم تصدّق عينيها وهي ترى غريمتها القديمة «برلنته الشقراء» تقف على عتبة بابها. تجوّلت ضيفتها بالمنزل الشامي وشربت القهوة بهدوء. وأخيرًا رفعت إليها عينين عمياوين بدموع غزيرة ونطقت بصعوبة. «برلنت خانم. إنّه ولدي الوحيد»

لم تشعر برلنت بالنصر مطلقًا، وهي تسمع غريمتها تعترف لها بأنّها «خانم» وأنّ اسمها «برلنت»، لقاء أن تساعدها في إخراج ابنها الوحيد من السجن، بعد أن قُبض عليه بتهمة الانتساب إلى تنظيم شيوعي سرّي. فعل ذلك وهو الثري الذي لا يعرف معنى «شيوعيّة»، لكنّه انجرّ لخاطر فتاة وقع بغرامها في الجامعة.

لم يكن صعبًا على برلنت أن تخرجه، عقب مكالمة هاتفيّة أجرتها مع أحد الضبّاط. بعد أسبوع واحد فقط، عاد لحضن أمّه.

عندما عادت برلنته الشقراء لتطرق باب برلنت، تحمل لها الهدايا والورد لتقول لها شكرًا على طريقتها الأرستقراطيّة، لم تفتح لها الباب. لم تكن تريد الاستمتاع بذلك النصر الرخيص. فالأمّهات يفعلن أيّ شيء لأجل أولادهنّ.

برلنت الشقراء عادت لتشكرها وتعبّر لها عن امتنانها الكبير طرقت باب منزل غريمتها أيضًا لتطوي صفحة قديمة مليئة بالحروب الناعمة والمناوشات المتباعدة. فكلّ دمشق عرفت بالحرب السرّيّة بين المرأتين.

لطالما تعمّدت برلنت حضور حفلات وسهرات فقط لتظهر بأبهى حلّة، لتغيظ غريمتها

وذات مرّة، تنافستا على ارتداء ثوب ظهرت فيه المغنية الشهيرة سميرة توفيق في أحد مطاعم دمشق.

وجرت بينهما مزاودة في منزل خيّاطة شهيرة في دمشق هي «مدام روز». ودفعت برلنت المبلغ الأعلى لتضمن أن يتمّ تفصيل فستانها قبل فستان برلنته الشقراء. وكان لها ما أرادت، ومشت برلنت متبخترة في حفلة رأس السنة، ومرّت أمام غريمتها لتريها أنّها حصلت على فستانها في الموعد المحدّد.

برلنت التي كانت تردّد دائمًا قائلة: «المال الذي نكتسبه بالحظّ علينا أن نحفظه باللؤم»، استثمرت مالها، عملت في تجارة الشنطة، كان يتبع لها مائة شيّال يدخلون ويخرجون من مطار القاهرة، عقب قانون في ١٩٧٤ بمصر يسمح لأيّ مصري باستيراد سلع مختلفة بحدود خمسة آلاف جنيه، وتكون معفاة من الرسوم.

هكذا بزغت مهنة «شيّال شنطة»، وكانت برلنت بارعة بتشغيل شباب وشابّات يدرسون في الجامعة، ويحتاجون لدخل معقول، كانت تدرّه عليهم تلك الطريقة بالتجارة. وأصبحت حقائب الشيّالين أولئك، تحوي: قطع غيار سيّارات، أدوية، أدوات طبّيّة وكهربائيّة، أطعمة محفوظة، وألبسة مستوردة من ماركات مختلفة، ونظّارات شمسيّة وساعات. وعندما تنبّهت الحكومة المصريّة لذلك النوع من التجارة ووضعت حدًّا له، كانت برلنت قد كوّنت ثروة معقولة أودعتها في البنوك.

بوتان.. الكردي

بوتان. كان أكثر الرجال صمتًا، فجأة يغرق عالمه بالظلام، وتلمع صورته يركض في حارة دمشقيّة جدرانها متهالكة، يلاحق كرة، يلهث، ويركّز، ثم يسدّد. وتدخل الكرة في المرمى يقفز فَرِحًا ليعانق رفيقه الأسمر كارلوس خلال ذلك، تمر فتاة شقراء تمشي بأناقة، تمنحه نظرة مع ابتسامة عبر التفاتة صغيرة وتكمل طريقها يغمغمُ شيئًا، شيئًا أراد دائمًا قوله لبرلنته الشقراء، لكن لا يوجد غير الصمت أين يجلس الآن وهو يفكر بها؟ تلك الأعوام التي انقضت. عاش بارتياح غامض بذلك الرفق الذي احتاجه حتى يتقبّل حقيقة طُرق سلكها بعناد ثور، حتى قَذَفت في وجهه نهاية مسدودة صمّاء لا لون لها

لم يحكِ لأحد تفاصيل تلك السنوات التي مرّت عليه وهو يناور هويّته وانتماءه..

سلك طريقًا طويلاً في دراسته التي أنهاها كأستاذ متخصّص في تاريخ شعوب الشرق الأوسط. ويشارك في أغلب مؤتمرات جمعيّة الطلبة الأكراد المنعقدة في أوروبا أخيرًا، انتسب لحزب البارتي.

بعد سنوات كثيرة، ربّما عقود، سيأتي أحد أحفاده وينشر مذكّرات كاتب «كردي»، كتب عن قضيّته في صحف أوروبيّة متنوّعة وبأسماء مستعارة.

وقتها، لم يعلم أنّ من كان يوقّع مقالات صحفيّة باسم «جالديران» تَذْكُر لأوّل مرّة شعبًا وطنه جبال كردستان. وقتها، لم يفطن أحدٌ من القرّاء إلى أنّ اسم «جالديران» كان ذاته اسم معركة جرت قبل خمسمائة سنة بين العثمانيين والصفويين. على إثرها، تمّ تقسيم كردستان، وثُبّتَ ذلك التقسيم نهائيًّا في قصر «شيرين» في معاهدة أُبرمت بين الأمبراطوريّتين.

أيضًا كتب مقالات باسم «يزدان» كان يومئ إلى زعيم اسمه «يزدان شير»، قاد حركة تمرّد في مناطق «بوتان» في عام ١٨٥٣، لكن غدر زعماء آخرين من زعماء العشائر الكرديّة إثر مصالحتهم مع السلطات التركيّة، أفشل تلك الحركة

وعندما سمّى نفسه عبد الله النهري، لم ينتبه أحد إلى أنّه الإسم ذاته الذي أودع في سجون إسطنبول في عام ١٨٨٠، بعد أن ترأّس حركة متمرّدة لبعض العشائر الكرديّة.

وعندما سمّى نفسه طويلاً «عبد الله مهاباد»، كان لا يكفّ عن تذكّر حقيقة أنّه آخر مرّة رأى فيها أباه «شرف خان» كانت

عندما ودّع زوجته البرنسيس جاويدان ووحيده «بوتان»، مغادرًا بشكل سرّي إلى «مهاباد»، حيث أُعلنت جمهوريّة كردستان، ورُفع العلم الكردي لأوّل مرّة.

وكالعادة، انتهت التجربة بالقضاء عليها بقسوة. وبعدها، لم يُسمع شيءٌ عن «شرف خان». بينما الأميرة «جاويدان» لازمت السرير مدّة شهرين، قبل أن تموت كمدًا بين يديْ ولدها الحزين «بوتان».

بوتان، خلال عشرين سنة مرّت، كان قد تناسى حبّه القديم: برلنت الشقراء. هكذا عطّل زناد الذاكرة، الحياة أقصر من تمضيتها في القلق حول الماضي، المستقبل يستحقّ أكثر قلقَنا ووقتنا وتفكيرَنا أيضًا قصص الحبّ الميؤوس منها تحتاج إلى بعض البلادة بالتعامل معها، هكذا استطاع أن يتحوّل إلى «حكيم»، وأن يتزوّج من دون مشاعر كبيرة، لكنّها حاسمة، من «روشان شير».

استقرّا في أرمينيا حيث يساهم بوتان في إعداد برامج إذاعيّة باللغة الكرديّة كانت تبثها إذاعة يرڤان. وروشان تدرّس في قسم الدراسات الكرديّة الذي افتُتح وقتها حديثًا

من نافذته تبدو في البعد ظلال جبل آرارات، بركان نائم مغطّى بالثلوج، ويُقال إنّ سفينة نوح استقرّت على قمّته. تتسرّب إلى أنفه رائحة «الترخينة» ـ الأكلة الكرديّة التي تُعدّها روشان بمهارة. وطفلة بالغة الجمال في العاشرة من عمرها، اسمها جاويدان. تثب إلى حضنه، وهي تطلب منه أن يكمل عنها تلوين

رسوماتها، بينما تغفو نائمة كقطّة هاربة من برد الشتاء.

لم يعد بوتان قطّ إلى دمشق. العواصم تشبه بعضها، اختار العيش في يريڤان ـ مدينة خضعت لحكم العرب ثم السلاجقة والمغول، احتلّها تيمورلنك وتصارع عليها العثمانيّون والفرس، والآن سيطر عليها الروس.

لم يعرف شيئًا عن برلنت أو كارلوس. ليست كلّ الصداقات يمكنها أن تستمرّ، ربّما جمال بعض الصداقات. يتأتّى من انقطاعها!

* * *

بين وقت وآخر تشرد برلنت، في خطوط كفّها التي سلّمتها ذات يوم لـ «بدريّة لهيطة» قارئة الكفّ المصريّة، التي تعمل في فندق الهيلتون، والتي تنبّأت للرئيس الأميركي نيكسون، أثناء زيارة للقاهرة، أنّه سيصبح رئيسًا

كمن يريد أن ينام نومة الأموات، أدمنت برلنت على الكحول، وحين تفاقمت حالتها لاذت بعقار الهلوسة «ل.س.د» وراحت تتخيّل كائنات معتمة ليليّة. أشكال غريبة في الظلام تلمع وتتحرّك. تتعمّد فقدان حساب الزمن والمسافات وتروق لها حالة التفكير المشوّش بلا منطق. يساعدها على الشعور بالاتّساع! تمتلك أرجلاً ناعمة خفيفة تمكّنها من الركض في دروب بعيدة. تروي ظمأها للنسيان. تترك حزنها يستريح على قارعة طريق سلكته بإرادتها تُطبق الباب وراءها وتستلقي على حنين شديد، غير متأكّدة لمن تحنّ؟ أين هي أرض السّعداء؟ ما عاشته لا يمكن

إلغاؤه. كانت متأكّدة من ذلك! مجروفة بنهر ندم غريب، لم تكن تعرف بالضبط على ماذا تندم؟ لكنّها قصّت شعرها قصيرًا جدًّا، بحيث لا يحتاج «كوافير»، من دون أن تكترث إذا ما كان ذلك غالبًا لا يعجب الرجال.

الشعر على الجانبين أطول من الشعر في مؤخّرة الرأس. وتركته حرًّا، ولم تعد تحمل معها السيشوار في رحلاتها في ذلك الصيف، صرفت مبلغًا كبيرًا وحزنًا فلكيًّا.

صوت.. كارلوس

كانت متفاجئة تمامًا من صوت كارلوس عبر سمّاعة الهاتف، وهو يطلبها في الساعة الخامسة صباحًا

«آسف يا حبّي نسيتُ فرق التوقيت».

«أهلاً دونْ كارلوس»، قالتها بجفاف لم تحدس سببه، في حين سمعته يقول بلهجته التي لم تتغيّر أبدًا، الهزل مخلوط بوقار خفي:

«تحبّين أن تظهري كما لو أنّك صخرة؟».

«صخرة؟ تتصل لتقول لي إنّني صخرة؟!».

برلنت تصمت، يتابع كارلوس على الجانب الآخر

«للصخور آلهة وأرباب تمامًا مثل البراكين والأرض

المجوّفة بالنار السائلة. لهذا كان دائمًا للأرض سحنة ملك ذلّته الأيّام.

باغتها بتلك العبارة الجميلة والخبيثة. من أخبره أنّها تعاني من إحساسها بالذلّ؟ أغلقت السمّاعة.

لم تتوقّع أن يقول لها كارلوس ذلك عندما قرّرت بعد يومين أن تطلبه في مكتبه

ـ «أنتِ؟! ما المناسبة؟ لو أنّك تموتين!»

«أموت؟!»

«نعم، تموتين وتصمتين. كما تصمت القبور

«شكرًا، بصدق أتمنى أن أموت»

قالت ذلك لتعثر لديه على بارقة حنان. خذلها وهو يقول لها ما بدا كما لو أنّه حفظه وتدرّب على قوله مرارًا

«ما أكذبك، مثلك لا يتمنون الموت أبدًا»

«صحيح، لا أتمنى الموت، أتمنى أن لا أموت أبدًا ولم ولن أتمنّاه، لست من الذين يهربون من الحياة إلى الموت»

«واوْوْوْ. هذه هي برلنت أم لطفيّة؟»

«أكره الانسحاب، لست من أولئك الذين ينسحبون».

«تظنّين أنّك لن تموتي مثلاً»

«سأموت يومًا، لكن عندي أمنية واحدة تتعلّق بالموت.

يصمت كارلوس، تتابع هي بصوت واثق:

«أن لا يخبرني الموت بموعده، أن لا يرسل لي أيّة إشارة، فليخطف روحي كرصاصة»

«أدّخرُ لكِ رصاصة، إذن سأحقّق أمنيتك»

تقهقه كطفل، وتقول:

«حقير»

ويقول هو بصوت يكاد يخلو من التعبير

«تضعين للموت شروطًا يا برلنت؟!»

«أجرّب، فأنا لم أُكثر من الأمنيات. ما حقّقته في حياتي، كلّه كان قرارات، لم أنتظر من السماء أيّة معجزات. دفعتُ ثمن كلّ ما حصلتُ عليه»

«أعرف.

«يحقّ لي إذن أن أتمنى أمنية معقولة، فليكن موتي سريعًا خاطفًا ضربة واحدة وينتهي كلّ شيء»

«يا ليتكِ. ما كنتِ يومًا، وما كانت عيناك، ولا صراحتهما البالغة. فالحبّ صريح وواضح كسهم. كذلك «اللّاحب» و«اللّامبالاة» وعدم الاكتراث. ببراءة، لم تحبّيني قطّ، لم تقعي

في غرامي، يا خانم. بنقاء مسرف كنتِ واضحة، ليتكِ لذتِ ببراعتكِ المعهودة بارتداء الأقنعة من كلّ الماركات، فلا تجرحيني بعدم اهتمامك».

تضحك عندما يذكر لها مثل صيني يقول:

«عندما يبتسم الحظّ لنا نلتقي بأصدقاء، وعندما يكون ضدّنا نلتقي بامرأة جميلة»

تقول له بخبث:

«من سوء حظّك أنّك لم تقع بين ذراعيَّ، إنّما وقعت بيديّ. سأفعل بك ما أشاء»

يردّ بحزن واستسلام:

«إذن ستطيلين انتظاري»

«انتظرني حتى أكون مستعدّة للإخلاص، لم أكن يومًا مخلصة. لا تسمح لي بالاقتراب منك قبل أن أتقبّل أفكارًا، مثل الوفاء، الإخلاص.

«أخشى أنّكِ لن تكوني مخلصة إلّا لخياناتك»

«كنتُ دائمًا مخلصة لغرائزي، وهذا ما تسمّيه أنت خيانة، كما ترى: المسألة وجهات نظر»

مرارًا، تذكّرت كارلوس القادم من العمق، ذلك العمق الذي يتميّز به القلب وحده.

ولم تنس قطّ ما قاله لها في المكالمة التي جرت بينهما، عقب مغادرته دمشق، كانت المكالمة الوحيدة خلال خمس سنوات. وبدا واضحًا أنّه علم بما اقترفته مع مراد بك، وقتها قال لها

«فلنتفاهم جيّدًا الخيانة مثل الأرض، كرويّة. يعني يا خانم: الخيانة ليست مضلّعًا أو مربّعًا أو مثلّثًا ستدور الدائرة وأخصّك بقصاص عادل وأرميكِ بخيانة شفّافة ومرئيّة. سأعضّك في قلبك. أين تختفين؟».

الآن بعد سنوات أخرى، تذكّرت أنّه كارلوس بذاته على السمّاعة، وهو يصيح بها عبر الهاتف:

«بكلّ الأحوال، التواري والتلعثم أمر يصيب كلّ الخاطئين على الأرض.

تجيبه ببرود مستفز ومتعمّد:

«لماذا اتّصلت قبل يومين؟ هل اتّصلت كعادتك لتعطيني درسًا بالأخلاق؟!».

يردّ عليها باللامبالاة ذاتها

«هل أنا غبيٌّ إلى هذا الحدّ؟ بلى غبيٌّ في مسألة واحدة، أنّي أحبّك! وما عدا ذلك ذكيٌّ إلى حدّ معقول. اتّصلتُ لأضرب لك موعدًا في دمشق يا حلوتي»

خلال عشرين سنة مرّت، تبادلا بها البرقيّات الساخرة

والرسائل المعاتبة واللكمات اللفظيّة، عبر الهاتف، لم تفكّر يومًا أنّها يمكن أن تحبّه!

* *

كارلوس اتّجه صوب دمشق، محاولاً أن يمحو من عينيه قضبان كلّ الزنزانات التي مر بها أصبح يخاف العتمة. ينام والأنوار مضاءة، يخاف أن تبدأ أشباح السجون رقصتها الحزينة.

أراد أن يمضي في أيّ قطار أو سفينة أو طائرة، أراد أن يحظى ببضع دقائق مع برلنت قبل أن يسقط ما بقي من أسنانه. سيتحتّم عليه الاستغناء عن أسنانه بعمر مبكر نسبيًّا، كما يحدث مع كلّ الذين تعرّضوا لتعذيب الصدمات الكهربائيّة في السجون.

تعمّدت ألّا تسأله عن شيء، خشيت أن يحكي لها عن «أسرة» فشلت هي بإنجازها لكنّها انتبهت إلى أنّ حزنه كان نهائيًّا

ما لم يقله لها، وقتها، سيقوله بعد عدّة أشهر، وهي تجلس إلى جواره كمتفرّجة على المباراة النهائيّة لمونديال كرة القدم. في بيونس أيريس

كيف وبأيّ لغة كان سيسرد عليها مأساته: السيّد بيدرو حدّاد احتُجز في سجن «تييرا ديل فويغو» التي تعني بالعربيّة «أرض النار» ـ سجن عسكري رهيب كان قد أغلق إبّان العهد الديموقراطي بسبب ظروف الاعتقال فيه التي تتنافى وكرامة الإنسان. لكنّ

العسكريين أعادوا فتحه ليستثمروا بؤسه في الانتقام من مجموعة من المليارديرات كانوا من الأصدقاء المقرّبين للجنرال بيرون.

كان بين المعتقلين خورخي أنطونيو العربي الأصل، والذي عُدّ بمثابة «أوناسيس» الأرجنتين.

السجن كان يبعد ثلاثة آلاف كيلومتر عن بيونس أيريس

بيدرو الحدّاد من الأثرياء القلائل الذين نفذوا من حملات اعتقالات، نُفّذَت بالجملة إبّان سقوط نظام الجنرال بيرون، بحقّ رجال الأعمال الذين كانوا متحالفين معه، لتمكين البلاد من الصناعات الثقيلة وذلك بالتحديد ما سعت إلى إنهائه السلطة العسكريّة الجديدة ليتمكّنوا من تقاضي العمولات الفاحشة، لقاء إرساء الاستثمارات الأجنبيّة على حساب الصناعة الوطنيّة، التي انتهت مع نهاية حكم الجنرال بيرون

بيدرو الحدّاد الذي كان من أثرياء النسيج، اختُطف من مكتبه وأُودع السجن في بداية عام ١٩٦٨، لضمان القضاء على ما كان ينتجه معمله من نسيج لا يُنافَس

كان قد تمّ اعتقاله بعد الانقلاب العسكري الذي أطاح بالجنرال بيرون. من دون سبب واضح بقي في السجن ثلاث سنوات. بعدها تسنى له الهرب متوغّلاً في الغابات صوب التشيلي استطاع العودة إلى بيونس أيريس بأمان، لقاء صفقة ماليّة ضخمة قبضها أحد الجنرالات كان بيدرو الحدّاد مدركًا خطورة كونه داعما للرئيس بيرون في منفاه ولفترة خمس سنوات، نسّق

بنجاح مع رجال الأعمال العرب الذين قاموا بإنشاء صناعة نصف ثقيلة، مثل صناعة الدرّاجات الناريّة والجرّارات. السلطات العسكريّة الأرجنتينيّة لم توفر طريقة لإنهاء وجودهم التجاري الساحق في البلاد. وجود ذكيٌّ مثمر ومؤلم. هكذا فَكّر يومها بيدرو وهو يدفن على عجل رفيقه في السجن، رجل أعمال سوري شهير بمشاريعه الناجحة.

الحكومة الأرجنتينيّة لم تصدّق السلطة التشيليّة وهي تعلن وفاة «ميغيل كحلو» خلال عمليّة الهروب تلك، وأنّ رفاقه اضطروا لدفنه في مكان لم يستطيعوا تحديده خلال رحلتهم الفظيعة في الغابات!

اختُطفتْ السيّدة سلمى حدّاد خلال عودتها برفقة ابنها من المدرسة. قُتل كلّ من السائق والطفل، واختفت سلمى. السلطات أنكرت وجودها لديهم، وبدأت عمليّة استنزاف حقيقيّة لثروة كارلوس.

* * *

برلنت تمعّنت طويلاً بصورة قديمة شبه مهترئة لسيّدة سمراء بشعر أسود مسحوب للأعلى وللوراء، وغرّة أنيقة تتدلّى على جبينها، وتحيط عنقها بعدّة عقود تلمع بينها ألماسة كبيرة. وإلى جوارها رجل خمسينيّ أشقر يميل إلى البدانة بعض الشيء.

إنّها أمّي، قال لها كارلوس، وأردف: «وخولين كراسنوف» أظنّه الرجل الوحيد الصادق الذي حظيت به أمّي خلال حياتها

القصيرة. كارلوس، أخيرًا، عثر على تلك الصورة بين أغراض لور ـ الخادمة السابقة لأمّه.

ابن لور مرّر تلك الصورة لكارلوس الذي علّقها على جدار في غرفة نومه، ولم يلبث أن نزعها ووضعها في صندوق وأغلق عليها برلنت تضحك من كارلوس وهو يشرح لها السبب:

«لم أزيّن جدران منزلي بصور أحبّائي، لم أفكّر بتعليقها على حائطي، الأمر تمامًا مثلما أنّي لم أكتب يوميّاتي قطّ، ربّما حتى لا أغامر في تحويل أيّامي السالفة إلى فيلم وثائقي، يمكن لشريطه أن يمرّ في أيّ لحظة. على الأقلّ أُتيحُ لنفسي الفرصة في أن «أفرّ» نظنّ أنّنا نزيّن جدراننا، فنوقع أنفسنا في شراك مربكة. نظنّ أنّ الصورة مؤطّرة في برواز، محبوسة تنصاع لحقيقة أنّها شيء جامد، لكن، لا

في دمشق، كان اللقاء، بعد كلّ تلك السنوات. في الليلة الأولى عندما تمنّعت عنه وهو يحاول تقبيلها، قابل قسوتها تلك بسرد سريع ومختصر لشريط حياته المحزن، لم تعرف أنّه كان يعيش مع ذكرى زوجة وابن، قُتلا ولسنوات، يفرغ شهواته في جوف المومسات. استدارت لتمشي أمامه وهي تناور نفسها، تنصت بشغف لنداء كارلوس. وفي الوقت نفسه تشبع غرورها واحتمال أن تنتهي تلك الليلة بهما بمثل ما كان دائمًا يشتهي منها كارلوس، أمر كان يثير فيها اضطرابًا كاسحًا

لم تنم تلك الليلة وهي تتذكّر ذلك اللمعان في عينيه، وهو

ينظر إليها، كان لا يشبه شيئًا غير الابتهال.

في الليلة التالية عندما حظي كارلوس بنعمة تمسيد شعرها بيد وبأخرى نهديها، وهو يداعب شحمة أذنها بشفتيه يقول بتشهّ هائل «أنتِ ألذّ امرأة عرفتها في حياتي»، منحته قبلات حارّة وهي تتركه يغمر نفسه بلهفة في لحمها

كارلوس.. الشام

«هل أعدّ لك الليالي التي كنت أستلقي فيها تحت اللحاف، ألمّ ركبتيّ وأسبح عائدًا إليكِ وخلف سبع طبقات من النوم أتصيّدكِ وأقبض عليكِ. لماذا كلّ هذا التشاوف؟ تنكّري قليلاً! تظاهري بالهمّ! من باب اللياقة احزني

ثمّة اتّفاقات نبرمها مع المصادفة من وراء ظهر العالم. عرفتُ أنّي سأقابلك من دون موعد، عندما قصدت بيروت، لم أكن قد خطّطت لمواجهتك بعد. بصراحة، لم أكن قد قرّرت تنفيذ وعدي بالمجيء إلى الشام. لكن ذلك السائق وسط بيروت، الذي كان يصيح «عالشام»، لم يكن يعرف أنّه يناديني أنا بالذات. ليكتمل عدد الركّاب لديه.

ها أنا، عدتُ، لأرى في شوارعها التناقض ذاته: نساء

مجلببات، وأخريات بالميني جوب يمشين في الشارع ذاته! جئتُ أبحث عمّن يحرّرني من الأمل. جئت تسحبني تلك الأيدي الحاذقة للمراهقين الذين يستثمرون جدرانها الطينيّة المتهالكة لتشهد على صبواتهم.

ذهبت لأبحث عن الجدار الذي كتبتُ عليه وثيقة رجاء تقول «اذكريني لطفيّة» ورسمتُ قلبًا وغرزت فيه سهمًا أحمر الجدار الذي تَقَبَّل استضافة قلبي المختَرَق منذ ذلك الزمن، لم أعثر عليه»

روت له برلنت كيف أنّ أغلب معالم دمشق القديمة انمحت، عندما سمح رئيس البلاد، بمحوِ دمشق، استقدم مهندس فرنسي أحمق اسمه «إيكوشار» هدم نصف دمشق، القديم، بذريعة تحديثها قبل أن يوقفه بعض الأدباء الغاضبين وهم يلفتون انتباه سيادة الرئيس، لما يُرتكب بحقّها من تحديث. تحديث!؟ ومن قال إنّ مدينة مثل دمشق تحتاج شيئًا قبيحًا وإسفلتيًّا وكاذبًا مثل التحديث. ؟ هؤلاء الاشتراكيّون ومشتقّاتهم لا يملكون أيّة ذائقة جماليّة، يحوّلون البلدان التي يمرّون فيها إلى علب إسمنتيّة قبيحة!

كلّ ليلة كان يروي لبرلنت المزيد عن حياته خلال عشرين سنة. يستحضر كلّ رفاقه في السجن. في السجن، الجميع يتحدّثون عن أجدادهم. رفيقه في الزنزانة «جاجا»، كان يقول إنّه سليل حاكم دولة اسمها «الأوبوبو»، قامت ذات يوم في دلتا النيجر عندما غادر السجن واستلم أغراضه، لمعت عيناه وهو

يدفع في وجه صورة من قال إنّها لجدّه، فيرى كارلوس رجلاً أسود، شامخ الملامح يعتمر قبّعة على شكل هرم متطاول بحافّتين نافرتين ومئزر من جلد الفهد، تزدان ذراعاه بأشكال مختلفة من الأساور. رغم أنّ ملامح وجهه لم تكن ظاهرة بشكل واضح، لكن في عينيه مرارة من دُفن حيًّا وسجين آخر كان اسمه «سنجا» وُلد وتربّى في جزر السيشل، حيث نُفيت عائلته من قبل الإنكليز، وأجبروا على مغادرة أفريقيا السجن مليء بطلبة من أصول أفريقيّة، تشبّعوا بأفكار الحرّيّة، مع ذاكرة واصلت بقاءها بدرجات مختلفة. آلهتهم خليط عجيب من آلهة سابقة والمسيح. كان أهمّ سجين بينهم «ساموري» ابن أحمدو ولور. لور التي كانت تعمل خادمة لدى أمّه، ولحقت بها إلى البرازيل هاربة مع عشيقها أحمدو كان كارلوس قد قابله في ساو پاولو وساعده في إعداد الأوراق الرسميّة اللازمة لتحصيل ما بقي من استثمارات أمّه هناك. كان «ساموري» ناطقًا بلسان حركة سياسيّة عرفت باسم الجبهة الزنجيّة البرازيليّة، حركة مزدحمة بوجوه تترجم اندماج الأعراق. لم تجدِهم نفعًا أسلحة التمرّد والثورة، فلجأوا إلى الجمعيّات والصحف والمنشورات والكتيّبات والفنّ والأدب.

دائمًا سيحفظ كارلوس أسماء مثل «فوده سيلا» ملك كومبو، وباي بوريد، يظنّه كان زعيمًا في سيراليون. استطاع دائمًا أن يتذكّر أسماء أبطال انتفاضة «الآرو» في شرق نيجيريا كلّهم رسموا أحلامهم فيما تحفّزهم روايات آبائهم عن تلك الأرض. نحن كائنات مخلوقة من «ذاكرة» .لم نتغيّر منذ ذلك الوقت الذي كنّا

فيه عراة، متوحّشين، نعيش في الكهوف والمغاور. افتعلنا بداية للتاريخ وحزّزنا الجدران مخلّفين تواقيعنا الأولى يوم كنّا نسجّل ذاكرة صريحة، مباشرة، واضحة، من دون تعقيدات التطوّر. رسمنا ما نحلم به: غزلانًا مقتولة وأعداء مذبوحين، ورسمنا من نحبّ مستسلمًا مذعنًا عند أقدامنا

روى لها عن خليلته السوداء «نانا»، المومس والمغنّية الشهيرة في الأرجنتين، الفخورة بجدّتها «نانا».

تزيّن غرفتها بصورة مهترئة بالأبيض والأسود. إنّها جدّتها، ملكة اسمها «نانا»، زعيمة ثورة الأشانتي

لم يكن كارلوس قد سمع بتلك الأسماء من قبل. وكثير من المسرحيّات التي كان يُدعى إلى حضورها تعود أفريقيا حاضرة، ولو بشكل مقتضب على خشبة مسرح مستأجرة.

التمسّك بذاكرة «الدم» في أحيان كثيرة يصبح طريقة دراماتيكيّة للموت.

«نانا»، عندما حضرت حفل تدشين لمطعم يملكه سيناتور يبدو أنّه كان عشيقها، زوجة السيناتور كانت حاضرة وأهانت «نانا» أمام الجميع. طلبت منها الغناء وهي تقول: «حضرات السيناتورات جميعهم مغرمون بأصوات المومسات السوداوات» نانا الثملة، هاجت مثل نمر، وهي تفرغ ما في حقيبة يدها الصغيرة المزيّنة بالخرز، وبتوتّر هائل أبرزت صورة جدّتها الملكة «نانا». ومرّرت الصورة أمام أعين جميع الحاضرين. بعد يومين

عُثر عليها ميتة في شقّتها على أثر جرعة مفرطة من المخدر.

حتى «نانا» ماتت. بكى كارلوس وهو يحكي لبرلنت عن «نانا»

في الحارة القديمة ذاتها مشيا، أراد كارلوس أن يتفقّد ملعبه الملفّق، الملعب الذي كان يلعب فيه مع بوتان وآخرين ويركل أحلامه أمامه من دون أن يفكّر بالمستقبل فعندما نلعب الكرة لا نفكّر إلّا بأقدامنا

كارلوس يتحدّث لبرلنت عن غرامه بكرة القدم:

«هل تفكّر الكُرَة بروح خالية من البغض؟ هل يمكن لنا أن نرى لمعان أهداف غيرنا من دون حقد، من دون مشاعر ثأر؟

برلنت تقول: نحن البشر نشبه «الكرة» كثيرًا، نحن مثلها نتنصّل من رمية طائشة قد نفعلها، ويغرينا التسلّل ونسجّل هدفًا جميلاً رائعًا من دون أن يكون شرعيًّا

يتابع كارلوس حديثه عن لاعبيه المفضّلين

«لاعب خائب مثلي سيعشق كلّ لاعبي الكرة الرائعين. قدري أنّي فرد من منتخب مهزوم قبل نهاية أوّل شوط. في آخر مباراة لعب فيها زيكو، تابعتُ قدميه بنهم. فعلها زيكو، قتل المدافعين، أفناهم، انتصر هو وبكيتُ أنا صدّقي، قدماي كانتا تركضان بمحاذاة قدميه، ومعه صوّبت وسدّدت وأللهُ . .

كوووول. ما أروع أن يمتلك المرء موهبة أن ينزّه الكرة من يمينه إلى شماله!

زيكو، أروع من يرجع للخلف. يعود للوراء، ليجدوه أمامهم! لاعب وسط وهجوم ودفاع! كسَّر عظام الكلّ وغلبهم.
أنا المهزوم يا برلنت، حتى عندما تعادلتُ مع الحياة، تعادلتُ صفر / صفر!»

برلنت كانت تتابع ركلات «زيكو» من خلال عينيْ كارلوس، وهو يحكي لها عن الكُرَة.

يتوقّفان أمام مخبز، يشتري لها الخبز وهو يقول لها

«في الهجرة نبحث عن المخابز العربيّة لنوهم أنفسنا بطعم القمح الموقّت أنّنا نحن كما نحن، لم تعدّلنا أو تغيّرنا الغُرْبَة»

يلتقط ابتسامة خافتة ويهمس لها

«النساء يفضّلن الابتسام على الاعتراف بالحزن، هكذا أسمّي طريقتك بالابتسام»

حين أثّثت منزلها الكبير الذي كان قصرًا فيما مضى، كانت تعرف أنّها اشترت منزلاً دمشقيًا قديمًا شغلته يومًا قنصليّة أوروبيّة في النصف الثاني من القرن التاسع عشر له ليوان مقنطر، وباحة تتوسّطها بحرة مرمريّة صُنعت في القرن الثامن عشر، وقاعة استقبال مصمّمة على طراز الروكوك العثماني.

كارلوس الذي امتلأت عيناه بكلّ الصور التي التقطها مصوّرو

الغرب لبيوتات دمشق، أكّد لها أنّه القصر ذاته الذي ظهر في إحدى لوحات السير «فريدريك لايتون»

حين أثّثت غرفة نومها كان في ذهنها تلك الغرفة الشهيرة التي استرضى فيها شريف باشا الوالي المصري زوجته الدمشقيّة «فرلان خانم»، التي أُغرم فيها قبل أن يراها عشيّة وصوله دمشق وهو يسمع كثيرًا عن جمال «فرلان» إحدى بنات عائلة العظم الشهيرة. فطلب يدها للزواج وعادت إلى القاهرة مع زوجها وحين غلبها الحنين، طلبت منه أن يجلب لها غرفة دمشقيّة كاملة التجهيزات لتزيّن بها قصرها فكان لها ما أرادت. وعقب موتها خلّفت وراءها جامعًا يعرف باسم ستّ الشام، وغرفة نوم لم تزل معروضة في قصر المنيل بالقاهرة.

كارلوس روى لها عن منزل سيّدة دمشقيّة عاشت قبل سنوات طويلة في ساو پاولو، كان اسمها «روميّة خانم» زاره في ساو پاولو روميّة خانم لشدّة شوقها للشام، أحضرت زخرفة حجريّة مملوكيّة منتزعة من واجهة حمّام دمشقي وجعلتها فوق بوّابة منزلها

وروى لها عن سيرة غرفة نوم من الموزاييك الشامي اقتناها متحف «ڤكتوريا وألبرت» بلندن، غرفة دمشقيّة حصل عليها من بعض السماسرة الأوروبيين في ١٨٨٠، لكن انفجار قذيفة خلال الحرب العالميّة الثانية أدّى إلى إلحاق الضرر بها، ولم يبق منها إلّا ما تحفظه الصور الفوتوغرافيّة التي لمحت بعضها في مجلّات

إنكليزيّة خلال رحلاتها إلى لندن.

الدمشقيّون كانوا أبرع شعوب الأرض بتصنيع غرف النوم. يتلذّذون بمعجزات الغرام بين فراش وملاءة!! أحاطوا أنفسهم بالديباج والحرير والعطور والمياه، والمرايا المستوردة من فينيسيا، لتشهد على صبواتهم وتقديرهم العالي للذّة.

تحدّثا كثيرًا عن ذكرياتهما مع بوتان، كأنّهما فجأة انتبها إلى أنّهما لم يعرفا عنه شيئًا قطّ.

الأرجنتين..

قابلهم جميعًا، عقب رحلات قام بها إلى كلّ الأماكن التي تتواجد فيها الجاليات السوريّة: توكمان، لوخان، روساريو، باهية، بلانكا، سان فرناندو، سالطا، برنا، خونين، خوخوي، سان خوان، مندوثا   نقّب في كلّ أرشيفات النوادي السوريّة ـ اللبنانيّة. أرشيفات ميناء بيونس أيريس

سيأتي جيل «ينسى» مثلما تمامًا سيذهب جيل «يُنسى»

فأغلب الذين هاجروا قبل عام ١٩١٨ تزوّجوا من متحدّرات من أصل إسباني أو إيطالي، فالنساء المسلمات لم يكن لهنّ وجود في تلك القارّة. هكذا حدث: أنّ أكثر من ثمانين في المئة من المسلمين المهاجرين تزوّجوا من مسيحيّات. مع مرور الوقت سيتراجع هذا الحضور بسبب الاندماج الطبيعي والتلقائي في

الحياة العامّة الأرجنتينيّة.

غالب المتحدّرين من أصول عربيّة كانوا يعبّرون عن تطلّعاتهم السياسيّة من خلال الانتماء إلى الحزب البيروني. الذي كانت مبادئه تستند إلى مبدأ العدالة الاجتماعيّة ومحاربة التهميش. وقد حظي العرب بعدّة مناصب سياسيّة، مكّنهم منها بيرون خلال فترة حكمه الأوّل، من بينها وزارة الخارجيّة ورئاسة الفريق البيروني في البرلمان، ورئاسة البنك المركزي. فمع امتلاك الجيل الأوّل من المهاجرين لثروات مهمّة، ازدادت أهمّيّة انخراطهم بالعمل السياسي ليضمنوا من يدافع عنهم وعن وجودهم.

لم ينس قطّ «دلعونا» تخرج منهنهة بالشيخوخة وبوهن الحنين من حنجرة جدّة صديقه «ألفريدو فتح الله»، عضو اللجنة التنفيذيّة للحزب الشيوعي الأرجنتيني. كانت قد تجاوزت التسعين وهي تصرّ على ترنيم الأغاني العربيّة؛ وعندما دعاه «ألفريدو»، كان يريد منه أن يترجم له بعض ما يسمعه من تلك الجدّة التي قامت بتربية حفيدها بعد أن توفي والداه بحادث سير كان ألفريدو في الخامسة من عمره، وكبر وهو يجهل العربيّة. فالجدّة كانت تريد من يعلّمها اللغة الإسبانيّة، وكانت تلك مهمّة الحفيد الذي ذهب إلى المدرسة وتعلّم اللغة جيّدًا، وصحّح أخطاء الجدّة اللغويّة. بدورها الجدّة لم تنتبه إلى أنّه كبر من دون أن يتعلّم شيئًا من العربيّة.

كارلوس وجد نفسه أمام حالة مرّة من الحنين تعاني منها

الجدّة، التي كانت تخرج من حنجرتها «دلعونا» تقطع كلّ المساحات المنداحة بين الماضي والحاضر

كَتَب أيضًا عن كلّ الجيل الذي عاصره «ألفريدو فتح الله». جمعه معهم النضال داخل الجامعة، حيث تخرّج أعداد كبيرة من المتحدّرين من أصل عربي، ويبحثون عن فرصة. كان «ألفريدو» قد انتخب سكرتيرًا عامًّا للفدراليّة الجامعيّة الأرجنتينيّة، وهي أهمّ منظّمة طلّابيّة في البلاد. وكان من بينهم «فسنتي سعادة» الذي أصبح رئيسًا للحزب البيروني.

لأيّام طويلة، حبس كارلوس نفسه مع أرشيف جريدة أسبوعيّة، كان والد ألفريدو يحرّر غالب فقراتها بنفسه، واصلت صدورها بصعوبة حتى رحيله المفاجئ. رغم أنّ الاشتراكات السنويّة التي حدّدت قيمتها في عام ١٩٢٥ بـ ١٥ بيسو فقط، فقد كانت غالب الاشتراكات لا تُسدّد.

الجريدة حفلت بمقالات سياسيّة تتابع تقريبًا كلّ ما كان يجري على أرض الوطن. بمتعة قرأ كارلوس مقالات تطالب بإقامة مملكة عربيّة موحّدة في بلاد الشام.

كان يدفع من جيبه الخاصّ الأجور لشبكة من المراسلين الموجودين في مختلف أنحاء الأرجنتين، بما في ذلك القرويّة، لتغطية أخبار مواطنيه، وكذلك نجاحاتهم التجاريّة وأنشطة نواديهم وكلّ المناسبات الاجتماعيّة من: «قران، تعميد، وفيّات، بيع، شراء، افتتاحات لفنادق ومطاعم ومحلّات تجاريّة. . .

بدأ سلسلة حوارات مع أشهر أعلام الجالية العربيّة في الأرجنتين

وبعد شهور قليلة، كانت برلنت قد وصلت الأرجنتين، وغدت تحضّر له قهوة الصباح في كلّ يوم.

إنّها كائن بشري، ليست امرأة ولا رجل، هكذا تبدو لكارلوس عندما تفكّر برلنت وتتّخذ القرارات.

برلنت غادرت دمشق، المدينة التي بدت في النصف الثاني من السبعينيّات، كما كانت تقول لكارلوس: «مزيجًا من المخادعين واللصوص والقوّادين يديرون حملات اعتقال وكتابة تقارير كيديّة تؤرق أهل المدينة» في كلّ يوم، كان باب برلنت تطرقه يد أمّ يائسة بعد أن اختفى ابنها فجأة في اعتقالات تُشنّ فجأة على الجامعات. لم تتوقّع أنّ أهل دمشق كانوا يعرفون حجم العشق الكبير الذي يكنّه لها أحد الضبّاط الكبار في البلد. لم تكن تحبّه برلنت، لكن يكفيها أنّه كان مفتونًا بها ويدلّلها، يلاطفها كما تُعامل بئر قبل أن تجود بمائها، لم يكن يردّ لها طلبًا، حتى لو كان إخراج طالب متّهم بالانضمام لحزب معارض للحزب الحاكم.

برلنت تكره السياسة كرهًا كبيرًا، وتعليقها الوحيد كان على ثورة قلبت نظام الحكم في نهاية الستّينيّات بقولها «أكره الثورات، فالنبلاء الذين يقومون بها يموتون أوّلاً، ويبقى الأوغاد

والرعاع. لكن، لا اعتراض على الحروب، فهي تسهم بإنقاص عدد الناس» ذلك الضابط المفتون بها كان يستمتع بأسلوبها بشتم الثورات والضبّاط وحبّها للحروب، بالتأكيد لن يسمع بامرأة مغرمة بالحروب لأنّها تقلّل عدد البشر وتستنكر انخراط الفتيات بالأحزاب ولعبة السياسة!

كلّ أمّ تطرق بابها لتساعدها بإخراج ابنة لها زُجّت بالسجن بعد أن قُبض عليها بتنظيم سياسي سرّي ما، ستسمع مجبرة شتائم برلنت التي تتلقّاها الأمّ بصمت بائس ومُذلّ: «مال ابنتك والسياسة؟ هل تريد أن تُغتصب؟ هل تعتقدين أنّهم في السجن سيكتفون بالتفرّج عليها؟ ألا تعرف ابنتك ذلك؟! إذا كانت ابنتك تتوق للنوم مع الرجال، فلتفعل ذلك من دون أن تتذرّع بالشعارات والوطنجيّات! ابنتك إمّا غبيّة أو تعاني من الكبت الجنسي»؟!

حكت لكارلوس عن حالة من التديّن المخيفة بدأت تسود دمشق. حدّثته كيف مر بها رجل ملتح ونهرها بقوله «ألم تعثري على تنّورة أطول من هذه؟ ألا ترين أنّك تغضبين الله؟»

«يا عمّ، الله الذي خلقني لن يغضب من أجل شيء كهذا بينما الله الذي خلقته أنت، سوف يفعل، وهذا لا يهمّني. إمشِ في طريقك قبل أن أخلع التنّورة»

كارلوس احتفى بتوقيع كتاب تضمّن حوارات أجراها مع رجال أمثال: إدواردو فالو الموسيقار ذي الأصل العربي، والذي

ساهم بنشر موسيقى التانغو في الخارج؛ ورجل الأعمال الشهير خورخي أنطونيو؛ وأبرز رجال الصناعة الثقيلة في الأرجنتين والذي تحالف مع الجنرال بيرون، وتمّ اعتقاله بعد الانقلاب العسكري الذي أطاح بالجنرال بيرون لمدّة سنتين ونصف السنة. وبعد سنوات طويلة كتب مذكّراته، ذكر فيها تفاصيل هروبه من السجن وتوغّله عبر الغابات وصولاً إلى التشيلي، واستقراره لاحقًا في مدريد مع صديقه الجنرال بيرون؛ كذلك تضمّن حوارًا مع الجنرال أمريكو ظاهر الذي سيصبح بعد سنوات قليلة قائد القوّات الأرجنتينيّة التي حطّت بجزر المالوين؛ وفرناندو ندرة، الأديب والصحفي وعضو اللجنة التنفيذيّة للحزب الشيوعي الأرجنتيني.

خلال حفل التوقيع، كان على يقين أنّه سيغدو من سكّان مدينة بيونس أيريس، المدينة التي سمح لها موقعها وميناؤها على الضفّة الشرقيّة للمحيط الأطلسي باستقبال جميع البواخر التي كانت تحمل المهاجرين من كلّ قارّات العالم.

لأوّل مرّة في تاريخ مباريات كأس العالم تقوم الدولة المضيفة ببناء ثلاثة ملاعب كبيرة، بالإضافة إلى إصلاح وتوسيع وتجديد الملاعب الثلاثة الأخرى. ولكي يتمكّن العالم من متابعة الألعاب، قامت الحكومة بإنشاء شبكة خاصّة للتلفزيون الملوّن، وربطتها بالأقمار الصناعيّة. بينما كان الشعب الأرجنتيني نفسه يشاهد المباريات بالأسود والأبيض فقط. وقامت الحكومة بتجديد شبكة الهاتف الداخليّة والخارجيّة لكي يتمكّن الصحافيّون من

تغطية المباريات. بذلك كانت الحكومة الأرجنتينيّة تأمل أن تكون هذه المباريات عيدًا شعبيًّا لكلّ الشعب، الذي كان يرثي أكثر من ثلاثين ألف مفقود قضوا في زنزانات التعذيب والقهر!

الدور النهائي كان خاليًا من فرانز باكنبارو وجوهان كرويف. لكن حضور برلنت إلى جانب كارلوس كان كفيلاً بأن ينسيه أسماء حتى أشهر لاعبي الفريق الأرجنتيني الذي كان يشجّعه.

طغى عنف الفريق الأرجنتيني على مكر الفرق الأوروبيّة.

برلنت حفظت أسماء جميع اللاعبين الذين يرى فيهم كارلوس الموهبة: روب رينزندرينك في الفريق الهولّندي وزيكو في الفريق البرازيلي وروبرتو بيتيكا في الفريق الإيطالي وميشيل بلاتيني في الفريق الفرنسي وليوبولدو ليوك في الفريق الأرجنتيني وهانز كرانكل في الفريق النمساوي.

في المباراة النهائيّة، لم يترك كارلوس يد برلنت تفلت من يده حتى خلال فرحته بالأهداف الثلاثة التي حقّقتها الأرجنتين في مرمى هولّندا مقابل هدف واحد في شباك الأرجنتين، وهو يصيح: «ماريو كامبيز وحده هزم الفريق الهولّندي» هي تابعت حارس المرمى «فيللول» باهتمام، بعد أن حمى شبكة فريقه من هدفين كان يمكن أن يمنحا هولّندا شرف كأس العالم لو تحقّقا

برلنت ترمي بملاحظة ظلّت تكرّرها على مدار المباراة: «أهداف كامبيز أسرع من عيون الحكم السنيور غونيللا».

حزيران ١٩٧٨، أرض الملعب تعاني من حنق تعبّر عنه الأقدام. كان باساريللا يتضارب مع نيسكينز، وبيرتولي مع بورت فليت، وأورتيز مع فاندر كيركهوف. مرّت ثمانٍ وثلاثين دقيقة خالية من أيّ لعب حقيقي.

جاء هدف خاطف حقّقه ليوكا في مرمى الهولّنديين. سمّرهم في مواقعهم، وعاود الهولّنديّون هجماتهم وأمطروا مرمى فيللول بوابل من الركلات. مباراة تُرتكب فيها المخالفات وتُمسّ قوانين اللعب من قبل كلا الطرفين «فاولات» كثيرة حدثت وظلّت برلنت تخبّئ يدها بيد كارلوس الدافئة.

في ذلك المساء، ارتدت برلنت فستانًا من الدامسكو الأبيض، عثرت عليه في صناديق والدة كارلوس التي كانت مودعة في أقبية المنزل الكبير يومها، قام كارلوس بإهداء القماشة لبرلنت. ظلّت القماشة تتنقّل بشكل قدري بين خزائنها، وقبل أن تغادر دمشق موافقة على تلبية دعوة كارلوس، أخرجت القماشة وفصّلتها بعناية كبيرة. القماشة كانت من الدامسكو المزيّن بالطيور والظباء. وعنترة وعبلاه.

في كلّ مرّة، كانت تُعيد قراءة ما كتبه في مسوّدة روايته القادمة عن «بطلة» خمّنت أنّها تشبهها كثيرًا وتحبّ التلصّص تحديدًا على تلك الصفحة التي كتب فيها

«وحدك تمشين بتلك الطريقة

مشية أحد لا يمكنه أن ينزوي،

هكذا يمشي الإنسان بكلّ بطره وحمقه وتكبّره وجروحه الشخصيّة.

إنسان لم يخف ممّا وراء «الأكمة» يحقّ له أن يمشي بجذع مشدود، بعد كلّ الحواجز التي حُطّمت وكُسّرت وذُلّلت وحُقّرت.

تقول له بعينين واثقتين: «بطلتك تشبهني»

«تشبهك أنتِ؟! أنتِ يا حبّي لست من صنف النساء اللواتي يمكن لكتاب أن يحتويهنّ، يصعب على الورق أن يؤويك، ستحرقينه، تتلفين كلّ ما تلمسينه»

تسمع كلامه، فيما عيناها الذكيّتان ستصلان إلى فرحه المكشوف بوجودها قربه أخيرًا

كان عليه أن يفرح بوجودها وحسب هو المهووس بالفتاة التي كانتها آنذاك، بدمشق. كان يجب ألّا يشكّك بها

هكذا علينا أن نفعل في سبيل أولئك الذين نستمرّ في حبّهم بطريقة ما!

هو يعرف أنّها ستعيش قربه ضمن قواعدها هي، قانونها الغريب الخاصّ، والذي صنعته لنفسها عندما لا تعجبنا القوانين التي صنعها غيرنا، فلنصنع قوانيننا بأنفسنا.

إنّها امرأة لا تكون إلّا إلى جانب رجل هو أحد المفتونين بها بينه وبين نفسه يعترف أنّه لم يمتلك يومًا كلّ المفاتيح لفهم طبيعة برلنت. فهي امراة تتصرّف كأنّها بلا أخطاء، وفي الوقت نفسه تُقرّ بعيوبها كأنّها أوراق اعتمادها كان عليه أن يقنع نفسه أنّه يعرفها في الحاضر فقط، حتى لا تُذلّه حقيقة أنّها امرأة قسّمت حياتها على معاشرة العديد من الرجال.

رغم كلّ شيء، لم يكن بوسعه أن يضع حدًّا لذلك الشعور الذي نشعره حين نلتقي مع أولئك الذين نقع في غرامهم في تلك اللحظات المؤرّخة سلفًا بيدٍ اسمها «القدر».

هكذا كانت طريقته بعشقها يريد لجسده أن يكون ممتلئًا برائحتها، وليومه أن يكون مضاءً بنظراتها، في عينيها شيء لم يتغيّر قطّ، نظرة تحاول أن تتلقّى كلّ شيء حولها، كان هذا مع ابتسامتها الفاترة أحدَ أسرار جاذبيّتها

في تلك اللحظة، التي يكتب فيها، كان كارلوس كرم، مثل سمك السلمون: لا يبرّر «عودته»، لا يسوّغ حنينه، لا يحتاج بيانات بالأهداف والدوافع ليس متّهمًا بالشوفينيّة لأنّه، يعود.

سيترك كلّ شخوص الماضي تفلت من «براويزها» لكي تذهب بعيدًا أنّى شاءت وبكامل كبريائها

بماذا نمسك؟ إلّا ما يهرب منّا!

حين أسلمت برلنت جسدها لدفء حرير الدامسكو، ومثل

كلّ نساء دمشق، امتلكت غرور أن ترتدي قماشة تحمل اسمًا شاسعًا، متكبّرًا، مترفّعًا أطلقه النسّاجون على نقشة سمّوها «دامسكو السبع ملوك»، لم يتساءل كارلوس: أيّ حرير يمكن أن يسمّر سبعة ملوك مرّة واحدة، على ثوب، ترتديه، امرأة؟!

فقط، انتبه إلى أنّها تمتلك جمالاً لها هي، الجمال الذي لم ترثه من أحد. إنّه تلك المنمنمات التي تنتشر بين ملامح الوجه من دون أن نراها

انتهى

لم يعرف كارلوس قطّ. أنّ ثمّة ماسة من البرلَنت المشوب بزرقة شاحبة كانت ضمن مجوهرات الملكة نازلي، والتي ستُعرض لاحقًا في متحف للمجوهرات الملكيّة في القاهرة. وسيمر الزوّار، يتأمّلون ذلك اللمعان المؤطّر بالزجاج، لمعانًا يشبه بريقًا لنجمة لا حدّ لها بريقًا يليق أن يبزغ من عين إلٰه! بريقًا جاء من باطن الأرض، من العتمة، من مكان لا شمس فيه. لهذا تعلّم كيف يكون هو الشمس

تصميم الغلاف نجاح طاهر

ألماظ المسيحيّة الدمشقيّة، حفيدةُ بابور الهندوسية، تتزوّج من الكونت اللبنانيّ كرم خوري المقيم في باريس، وتبدأ رحلتَها غيرَ المتوقّعة فتعبر الأطلسي بسبب قصّة حبّ، وتجد نفسَها في ساو باولو، وتشيّد عالمَها هناك مع المهاجرين العرب، حتى تعود مرّةً أخرى إلى باريس لتنجب الحفيدَ المنتظر للكونت، كارلوس.

كارلوس بدوره يكبر في دمشق، ويتشارك أحلامَه مع صديقه الكردي بوتان، حفيدِ أحد أشهر أمراء الأكراد الذي يغادر دمشقَ لإكمال أحلام أبيه. أمّا كارلوس، فيتابع خطّ رحلة أمّه ألماظ وألماستها الزرقاء في اتّجاه البرازيل.

رواية تتناول مجتمعَ دمشق بأطيافه الدينيّة الكاملة، وهو أوّل عمل يتناول المهجرَ السوريّ في أميركا اللاتينيّة.

لينا هَوِيَان الحسن، روائيّة سوريّة. صدرتْ لها ستُّ روايات، ودراستان توثيقيّتان عن المجتمع القبليّ في سوريا، ومجموعة شعريّة.

دار الآداب

هاتف: ٠١/٨٦١٦٣٣
٠١/٧٩٥١٣٥
ص ب ٤١٢٣-١١ بيروت

ISBN: 978-9953-89-460-7
9789953894607